سِيَاقَا الحَالِ والمَقَالِ فِي المُنْجَزِ البَلاغِيّ العَرَبِيّ القَدِيمِ بَينَ التَّنظِيرِ والتَّطْبِيقِ "دِرَاسَةٌ فِي ضَوءِ نَظَرِيَّةِ السِّيَاقِ".

إعداد

د. إيهاب عبد الفتاح أحمد

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الآداب، جامعة بني سويف

drehab2022@gmail.com

المستخلص

يَرصدُ هَذا البَحثُ سياقَي الحَالِ والمَقَالِ بَين التَّنظيرِ والتَّطبِيقِ فِي منجَزاتِ الدَّرسِ البلاغيّ العربِيّ القَديمِ، ودَورَهما الفعَّال في قراءةِ النصّ،بِوَصْفهما آليَّتينِ مِن آليَّات فَهمِه وتفسِيرِه؛ ذلك أن النص بوصفه جنسًا بلاغيًّا تتجلّى قيمته البلاغية فيما يتضمَّنه مِن علاقاتٍ سياقيَّةٍ بين تراكيبِه اللغويةِ ذات الدلالات المجازية التي تُفضِي بمرادِ المتكلم إلى ذهنِ المخاطَب؛ وَلِهذا فَطِن البَلاغِيُّون إلى ربط صياغة النص بالحركة الذهنية والنفسية عند المتكلم، وانصبَّ جَهدُهم فِي دراسَتِهم للنصّ على فكرةِ مقتضَى الحَالِ والعَلاقةِ بينَ الحَالِ والمَقَالِ، ومن ثمّ ضبط هذا المقتضى بمواصفاتٍ من شأنها أن تجعلَ الصياغةَ صالحةً للدخول في نطاق البلاغيّة .

الكلمات المفتاحية :

النَّصّ ـ آليّات ـ السِّيَاق ـ الحَال ـ المَقَال ـ مُنجَزَاتِ ـ الفعّال

:Abstract

The present study monitors the context of both the adverb and the article, between theorization and application in the achievements of the ancient Arabic rhetorical lesson, in addition to their effective role in reading the text as a means of reading and explaining the text. The text as indicated in the study, and as depicted as a rhetorical genre a long with its rhetorical value for its contextual linguistic structures have figurative connotations that address the speakers' mind. For this context, the rhetoric link both the text wording and the speakers' mental including his psychiatric attitude together. They highlight also the relationship between the article and the adverb which make .wording or modulating the text more rhetorical

:Key Words

Text - Mechanisms – Context – Connotation – Article – Effective – Adverb - Achievements- Wording- .Theorization

المقدمة:

شغل السياق في الدرس اللغويّ الحديث حيّزًا واسعًا، خاصَّةً في تلك الدِّراسات التي تقتفي أثرَ الاتجاه التَّواصلي الذي يهتمُّ باللغة في إطارها السياقي. وقد لفتَ دورُه في تحديدِ الدلالة انتباه الباحثين وغلبَ على مُنجَزَاتهم البحثيّة حتى صار نظريَّةً مكتملةً وذات قيمةٍ كبيرةٍ فِي دراسةِ المَعنى، وفَهْمِ جماليات النص التي يقترحها على متلقيه؛ ولهذا تنطوي بلاغة عملية التواصل الفنّي في بعدها الشمولي على إدراك التفاعل الذي يؤثر في سيرورة التواصل المتبادل بين أركانها الأربعة؛ حيث المتكلم الذي يعدّ ركنًا مهمّا في تلك العملية، فهو الباعث على إنتاج النصّ الموجَّه إلى المخاطَب، والواقع غير اللغوي، وهو العالم الخارجي المعايَش الذي يستمد منه المتكلم المادة الخام لإبداعه، والمخاطَب الذي يتوجه إليه المتكلم بنصّه، فيتفاعل مع النص انقباضًا وانبساطًا، ثم النصّ الأدبي بوصفه سِياقًا تجسّدت فيه أفكار المتكلم.

الدراسات السابقة

لم أقف على من درسَ سياقَي المَقَالِ والحَالِ فِي المُنجَزِ البلاغيّ العرَبِيّ القَدِيمِ فِي ضَوءِ نَظَرِيَّة السِّياقِ، إلّا مَا وَجَدتُّه فِي دِراسات جاءت مقارِنَةً لملامحِ النَّظرِيَّةِ السِّياقِيَّةِ بَينَ القُدماءِ وَالمحدَثِين، أَو مقتصِرةً على ملامحِ النّظريَّةِ عندَ اللُّغوِيّين العَربِ غير كاشِفةٍ عنهما بَينَ التّنظِيرِ والتَّطبِيقِ، وهو ما انعقدتْ دِراسَتُنا له.

منهج الدراسة

قامت الدِّراسة على المنهج الوصفيّ التَّحليليّ، وصفًا وتَحلِيلاً للنصوص التِي يتجلَّى فيها سِيَاقَا المقالِ والحالِ بِوصفهما أداتَين مِن أَدوَاتِ حِيَازةِ المَعنَى وتقويمِ الدِّلالةِ، وَمن ثَمَّ فهم النَّصّ فِي ضَوءِ نَظرِيَّةِ السِّياقِ، مُعتمِدةً على أُمَّهاتِ الكُتُبِ البلاغية واللُّغويَّةِ، وبَعضِ الكُتُبِ التِي عَنيتْ بِالسِّياقِ .

المِحْوَرُ الأوَّلُ: نَظَرِيَّةُ السِّيَاقِ(مِهَادٌ تَارِيخِيٌّ)

المتتبع لنظرية السياق في الدرس اللغوي الحديث يلمسها في ثنائية سوسير الكبرى التي سميت بثنائية علم اللغة الداخلي والخارجي، وفيها يكشف سوسير عن بنية اللغة التي ترتكز على نظامين لغويين؛ أحدهما داخلي يشتمل على قضايا أساسية، والآخر خارجي يتمثل في القضايا الثانوية؛ ذلك "أن علم اللغة الخارجي يتناول أشياء مهمة كثيرة، وهي الأشياء التي تخطر على بالنا حين نبدأ بدراسة اللسان"([1])، لكنها ليست عنصرًا مؤثرًا في صيرورة البنية اللغوية، ومن ثمّ فإن لدراسة اللغة عند سوسير آليتين؛ إحداهما تعنى بالكشف عن البنية الداخلية للغة، والأخرى تعنى بالكشف عن القضايا الخارجية عن البنية، وكلتا الآليتين "تتطلب أسلوبًا متميزًا في البحث، فعلم اللغة الخارجي يستطيع أن يجمع بين تفصيل وآخر من غير أن يقع في قبضة النظام، فيقوم كل كاتب ـ على سبيل المثال ـ بتصنيف الحقائق إلى مجموعات بالطريقة التي يراها مناسبة... وإذا أراد أن يبحث عن العوامل التي تخلق اللغة الأدبية فباستطاعته أن يستخدم أسلوب التعداد. وإذا رتّب الحقائق بأسلوب منظم إلى حدٍّ ما، فإنما يفعل ذلك من أجل الوضوح ليس إلا. أما في علم اللغة الداخلي فإن الأمر يختلف تمامًا، فالتنظيم العشوائي لا يفيد في هذا العلم؛ لأن اللغة نظام له ترتيب خاص به"([2]).

وامتدادًا لفكرة سوسير يأتي توجّه روّاد مدرسة براغ في دراسة اللغة، غير أنهم اختلفوا معه في تناول علاقات اللغة بالواقع غير اللغوي (النظام الخارجي)، فقد درسوا الطبقات اللغوية الوظيفية والأسلوبية، وعلاقات اللغة بالأدب، والفن، والثقافة، وعلم الدلالة، والشعرية. وتتمثل آراء تلك المدرسة في

([1])دي سوسور :فردينان،علم اللغة العام،ترجمة يوئيل يوسف عزيز،مراجعة مالك يوسف المطلبي،دار آفاق عربية ،بغداد، ط1985م، ص39.

([2])دي سوسور :فردينان،علم اللغة العام،مصدر سابق ،ص41.

نظرية جاكبسون التواصلية، وفيها يحدد العوامل التي تؤثر في سيرورة التواصل اللفظي، وتستدعيها العملية التواصلية في الحدث الكلامي، كما يوضحه الرسم التالي([1]):

سياق

المُرْسِل..... رسالة ..... المُرسَل إليه

اتصال

سنن

وتباعًا للرسم السابق يعدّ المُرْسِل ركنًا مهمّا في العملية التواصلية؛ ذلك أنه الباعث على إنتاج الرسالة الموجّهة إلى المُرسَل إليه أو المستقبل الذي يقوم بتفكيك أجزاء الرسالة، وهو بحسب سوسير المتحدث(ب)من خلال تعقيبه، أو إضافته، أو تساؤله، أو رفضه الرسالة، وفي هذه الحالة يتحول المرسِل مرسَلاً إليه والعكس صحيح. ويجب التمييز بين المرسَل إليه مباشرة إذ لا فارق زمنيًّا وربّما مكانيًّا كما يحصل في حوار صحافي مثلاً، والمرسَل إليه غير المباشر كما في العمل التواصلي الفني المتميّز بالكفاءة العالية في تحويل المخاطَب إلى مستقبل لخطابه مهما اختلف المرسِل والمرسَل إليه في الفضاء الزمكاني([2]).

ولكي تكون الرسالة ذات أثر، فإنها تقتضي سياقًا تتجسّد فيه أفكار المُرسِل، ويدركه المُرسَل إليه، وتتمثل تلك الأفكار في صورة سمعية في الرسالة الشفهية، أو علامة خطيّة في الرسالة المكتوبة، وربما في إشارات

([1])انظر جاكبسون: رومان، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر،ط1، 1988م، ص27 .

([2])انظر بو مزبر:الطاهر بن حسين، التّوَاصُل اللساني والشعريّة مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون،الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1 ، 2007 م،ص 24 :26.

كإشارات الصمّ والبُكمِ، وإشارات السير، وغيرها، وهي"تمثل في نهاية الأمر محتوى الإرسال، وتتمحور حول إطار مرجعي معين وتنسج أبنية نظامها في ضوء نظام لغوي مقنّن (سنَن code)"([1]).

ونجاح العملية الإخبارية يعتمد على مدى تمكن طرفيّ الحوار؛ المرسل والمخاطَب من هذا النظام المشترك كليًا أو جزئيًا، الذي يتفرّع بدوره إلى أنظمة صغرى، فيقسم السَّنَن الشمولي أربعة فروع، هي: المسننات الصوتية، والمسننات الصرفية، والمسننات التركيبية، والمسننات الدلالية، وهي تساعد على فصل الجملة النحوية عن الجمل غير النحوية(أو اللاحنة)، استنادًا إلى الجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين. وتقتضي الرسالة سياقًا معينًا مضبوطًا قيلت فيه، ولا تفهم مكوناتها إلا بالإحالة على الملابسات التي أنجزت فيها، وقد يكون ذلك السياق لفظيًّا أو غير لفظي يمثل المحيط الذي ولدت فيه هذه الرسالة، وتشكّلت أبنية خطابها اللفظي؛ ويتضمن الموقع أو الإطار الزمكاني، والهدف، والمشاركين في العملية التواصلية من حيث عددهم ومميزاتهم وعلاقاتهم، وتقتضي الرسالة أيضًا قناة تواصلية تسمح بانتقال الرسالة بين المرسل والمرسل إليه([2]).

وقد وسّع جاكبسون عناصر الموقف الكلامي، فجعلها ستة عناصر لكل عنصر منها وظيفة معينة، وهذه الوظائف كما يلي:

أولًا: الوظيفة الانفعالية

هي وظيفة تركز على المرسِل إذ تعبّر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم حيال ما يتحدث عنه، وتنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معيّن صادق أو

([1])انظر المرجع نفسه ،ص27 .

([2])انظر بو مزبر:الطاهر ، التّوَاصُل اللساني والشعريّة ،مرجع سابق،ص 29 :33.

خادع([1]). وتشتد الطبقات الانفعالية وضوحًا في خطاب منطوق مباشر، ويرتفع نتوءها على سطح الخطاب أكثر من المكتوب؛ ذلك أن المنطوق يستعمل آليتين: الأولى دلالية صرفة كصيغة التعجب، والاستغاثة، والندبة، وغيرها، والثانية فيزيولوجية تعتمد النبر، والتفخيم، والترقيق، والجهر، والهمس، وارتفاع الصوت والمحادرة. أما المكتوب فيعتمد على الآلية الأولى فقط؛ لأن الجانب الفزيولوجي للدوال يَدْمُر عندما يتحول الخطاب من المنطوق إلى المكتوب([2]).

ثانيًا: الوظيفة الإفهامية

يمكن حصر هذه الوظيفة في بعض المميزات الأسلوبية للخطاب المرسَل والموجّه إلى جهاز الاستقبال؛ كالتأثير، والإقناع، والإمتاع، والإثارة؛ فأما التأثير فيركّز على معادلة ذات طرفين متعاكسين هما: (المفاجأة والتشبّع)؛ لأن الحدث اللساني رباط بين الباثّ والمتقبّل، وأما الإقناع فيكون بتوظيف الحجج المنطقية في الخطاب اللفظي المنجَز، وأما الإمتاع إلى إدخال النشوة في نفس المستقبل في محاولات لاسترضاء وجدان المخاطَب وعاطفته، وأما الإثارة فهي تعبر عن ردود فعل المستقبِل تجاه الخطاب([3]).

ثالثًا: الوظيفة الانتباهية

تعتمد هذه الوظيفة على رسائل توظّف لإقامة التواصل بين المتكلم والمخاطَب وتمديده؛لإثارة انتباه المخاطَب، أو التأكد من أن انتباهه لم يفتر أو يضعف،مثل:"قل، أتسمعني؟" أو "استمع إليّ!"([4]). وأما الوظيفة المرجعية،

([1])انظر جاكبسون:رومان، قضايا الشعرية، مصدر سابق، ص28.

([2])انظر بو مزبر:الطاهر ، التّوَاصُل اللساني والشعريّة ،مرجع سابق،ص 36.

([3]) انظر المرجع نفسه ،ص40.

([4])انظر جاكبسون:رومان، قضايا الشعرية، مصدر سابق، ص30.

وهي وظيفة تتلوّن بها كل الرسائل عندما يكون محتواها مؤيدًا لما ورد فيها من أخبار؛ذلك أن اللغة في الرسائل التي تهيمن عليها الوظيفة المرجعية تتجه إلى تفسير نفسها،من حيث هي رموز تنوب عن الأشياء التي نتحدث عنها([1]).

رابعًا: وظيفة الميتا لسانية (أو وظيفة الشّرح)

تستعمل هذه الوظيفة حين يريد المتحدثان التأكد من استعمالها الصحيح للسَّنَن أو الشّفرة التي يوظفان رموزها في التخاطب،فيكون الخطاب مركّزًا عليها،فيتساءل المخاطَب:إنني لا أفهمك،ما الذي تريد قوله؟أو:ما تقول؟ويسبق المتكلم مثل هذه الأسئلة فيسأل:أتفهم ما أريد قوله؟([2]).

خامسًا: الوظيفة الشعرية

وهي وظيفة فن اللغة المهيمنة عليه، لكنها ليست الوظيفة الوحيدة له، ومن شأنها إبراز الجانب الملموس للدلائل، وتعميق الثنائية الأساسية للدلائل والأشياء. ودراسة اللسانية للوظيفة الشعرية في سياق الشعر ينبغي أن تتجاوز حدوده؛ ذلك أن خصوصيات الأجناس الشعرية المختلفة تسلتزم مساهمة الوظائف اللفظية الأخرى بجانب الوظيفة الشعرية المهيمنة وذلك في نظام هرمي متنوع. فالشعر الملحمي يفتح المجال أمام مساهمة الوظيفة المرجعية، والشعر الغنائي الموجّه نحو ضمير المتكلم شديد الارتباط بالوظيفة الانفعالية، وشعر ضمير المخاطَب يتسم بالوظيفة الإفهامية ([3]).

وبصورة مغايرة لتوصيلية براغ، كان اهتمام مالينوفسكي(العالم الأنثربولوجي)باللغة؛ حيث نشأ اهتمامه بها في دراسته لأثرها في المجتمعات البدائية، بوصفها صيغة من الحركة، وليست أداة للانعكاس؛ لأن اللغة لم تكن

([1])انظر بو مزبر:الطاهر ، التّواصُل اللساني والشعريّة ،مرجع سابق،ص 36.

([2])انظر جاكبسون:رومان، قضايا الشعرية، مصدر سابق، ص31.

([3])انظر المصدر نفسه، ص 31 : 33.

أصلا مرآة لفكر منعكس، وإنما أسلوب عمل([1])، مع الاحتفاظ بكونها وسيلة اتصال بين الناس، وبذلك يكون أول من استعمل مصطلح سياق الحال.

وقد جاء بعده العالم اللغوي الفرنسي(فندريس)الذي اهتم بسياق المقال لا سياق الحال، وذلك ضمن حديثه عن طبيعة المفردات اللغوية ومداها،موضحًا أنه لا يتبادر إلى الذهن من المعاني إلا ما يعنيه النص؛"ذلك أننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد، نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما، إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعنيه سياق النص، أما المعاني الأخرى جميعها فتنمحي وتتبدد، ولا توجد إطلاقًا "([2]).

ويشير فندريس إلى أهمية السياق في تحديد المعنى المراد من الكلمة دون غيره من المعاني المتراكمة التي تشترك فيها دلالة الكلمة،" فالكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدي الذي تحددها به القواميس. إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي يحيط بها وينفذ فيها ويعطيها ألوانا مؤقتة على حسب استعمالاتها. بل حتى عند أقل الناس خيالا وأبعدهم عن التأثر يختلط بالمعنى التجريدي العام الذي تبين عنه الكلمة، ألوان خاصة هي التي تكون قيمتها التعبيرية. إذا أردنا تحليل هذه القيمة اكتشفنا فيها خصائص متنوعة وأصولا عديدة فهي تنشأ أولا من اتفاق يتكون بين معنى الكلمة والأصوات التي تتألف منها"([3]).

([1])انظر عمر: أحمد مختار، علم الدلالة ، عالم الكتب ـ القاهرة ، ط3 ، 2004 ، ص71. وكذلك بالمر :فرانك،علم الدلالة ، ترجمة : مجيد الماشطة ، دار المأمون للتراث ، بغداد ، 1985 ، ص75 . .

([2])فندريس :جوزيف،اللغة،تعريب عبد الحميد الدواخلى،ومحمد القصاص،مكتبة الأنجلو المصرية،ط 1950 م ، ص228.

([3])المصدر نفسه ،ص235.

ويعدّ فيرث العالم اللغوي الإنجليزي أوّل من أسَّس لنظرية لغوية متكاملة في موضوع السّياق؛ حيث قام بدراسة مكونات اللغة وفق ظروف اجتماعية، مركّزًا على العلاقات التي تربط اللغة بالمجتمع، ومتبنِّيًا نظرية سياق الحال التي ابتكرها مالينوفسكي ليتمكن من معاينة الوظائف أو المعاني التي تؤديها الكلمات والجمل في السياقات الموقفية الخاصة التي تستعمل فيها.

وقد تجسدت نظرية السياق عند فيرث بنظرته إلى اللغة على أنها نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، ليست وليدة لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة، ولكنها حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال(سياق الحال)، وهذا السياق هو كل ما يتعلق ويحيط بالأفراد، أو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو(للحال الكلامية)([1]).

وتماشيًا مع مفهومه عن السياق يبني مفهومه للمعنى، فالمعنى عنده هو الوظيفة في السّياق حالاً ومقالًا، وتحدده العلاقة بين المواقف وتوزيع العناصر اللغوية([2])، فالجملة أو أي جزء منها لا يمكن تحديد معنى لها إلا في إطار سياق محدد وصحيح؛ الأمر الذي يعني أن المعنى عند فيرث مجموعة من العلاقات السّياقية، وعلى الدراسة الفونولوجية، والتركيبية، والمعجمية، والدلالية أنْ تعالج مكونات هذه المجموعة في إطار سياقها، "وتأسيسًا على هذا المبدأ فإنَّ الدراسة الدلالية ـ في نظر فيرث ـ ينبغي لها أنْ تربط الملفوظات اللسانية بسياقها الموقفي الذي تنتج فيه بالفعل، ولذلك فإنَّ عملية التحليل الدلالي تتم

([1])انظر عماش: أحمد كاظم و حاتم : رياض حمود ،سياق الحال في الاتجاه الوظيفي مايكل هاليداي "أنموذجا"، جامعة بابل / كلية الدراسات القرآنية، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية / جامعة بابل،ع 29 ، تشرين أول /2016م ،ص133 .

([2])نحلة:محمود ،علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ملتقى الفكر، الإسكندرية،1998م،ص 28 ، 29.

وفق سياقية منسقة من الأحداث بتداخل سياقات مختلفة، تنتمي في مجموعها إلى سياق عام ينعت بالسياق الثقافي"([1]).

وقد افترض أن ما نقوله وما نسمعه يمكن أن يقسم إلى عناصر أو مكونات، ويمكن تحديد هذه العناصر وتعيينها عادة بمنهج الإبدال، فالكلمة مقابل إبدال معجمي، والصوت يمكن أن يكون مقابل إبدال صوتي أو تصريفي، ويرى فيرث أن مقابلات الإبدال هذه يمكن أن تحدد في سياقات أصواتية صرفة، أي دون سياق لفظي أو قواعدي أو موقفي كامل، ويذكر أنه من الممكن أن يحسب العدد الأقصى عن طريق الدراسة الاستقصائية لتوزيع مقابلات الإبدال في جميع السياقات الممكنة، وهو ما أسماه بالتوزيع السياقي للصوت، وعن طريق الدراسة الاستقصائية أيضا يقدر التردد النسبي لوجود الصوت في سياقاته المتنوعة، ويجدول العدد الإجمالي الأقصى لأصوات مبنى لغوي معين، ويوصف باعتباره نظاما صياتيا كاملا، وتحدد القيمة الأصواتية أو الاستخدام الصوتي لأي صوت عن طريق موضعه في النظام الكامل، وعلى المستوى المعجمي يمكن اعتبار الوحدة المعجمية(ق ت ل)مقابل إبدال معجمي للوحدة(ض ر ب)مثلا. أما على مستوى الكلمة، فكلمة القاتلة هي مقابل إبدال لكلمة الضاربة ونحوها مما يمكن أن يحل محلها([2]).

وهكذا فإن المعنى عنده يشغل خمس وظائف أساسية مكونة، وهي: الوظيفة الأصواتية للصوت باعتباره مقابلا إبداليا، فالأصوات لها مواضعها في السياق وفي نظام العلاقات الذي يدعوه البنية الأصواتية للغة، والوظيفة المعجمية للمبنى أو الكلمة، بوصفها مقابلا إبداليًّا، والوظيفة التصريفية،

([1])حساني:أحمد،مباحث في اللسانيات،منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية،دبي - الإمارات،ط2 ، 2013م، ص 98 ، 99.

([2])انظر يونس :محمد ،المعنى وظلال المعنى:أنظمة الدلالة في العربية،دار المدار الإسلامي،ط2 2007م ،ص 118 ،119 .

والوظيفة التركيبية، كما إذا نطقت الجملة السابقة بتنغيم استفهامي: (عفوت عن القاتلة)؟ أو تعجبي: (عفوت عن القاتلة)!، والوظيفة الدلالية، ولا تتأتى هذه الوظيفة إلا بالتحقق السياقي للقولة في موقف فعلي معيّن، ويسمى هذا السياق سياق الحال([1]).

وعلى درب فيرث يسير هاليداي(وهو من أبرز أتباع النظرية السياقية)، لكنه لم ينظر إلى هذه العناصر كلها، وإنما أراد أن يقيد السياق بالأمور المؤثرة في البيئة، وتكون ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي، وعليه فهو ينظر إلى السياق أبعد من فيرث، فنراه يبين وحدة المعنى بتركيب الجملة، أي: إن المتكلم لا ينطق بالجملة عارية ثم يكسبها ثوب المعنى في مرحلة تالية،ولكن المعنى ينشأ في الظرف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي،أي:في لحظة تفاعل المرء مع الحدث([2]).

وبتأثير واضح من نظرية (فيرث) السياقية تولد اهتمام اللغويين المحدثين العرب؛من مثل تمام حسان في كتابه (مناهج البحث في اللغة) وشرحه لمصطلح (سياق الموقف) عند (فيرث)، أو ما أسماه(الماجريات)، وكذلك كمال بشر في كتابيه: (دراسات في علم اللغة)، و(علم اللغة الاجتماعي) وكلامه فيهما عمّا أسماه (المسرح اللغوي)، وأيضًا محمود السعران في كتابه (علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي)،...وغيرهم ممّن شملت مؤلفاتهم العلمية اهتماما واضحا بعناصر السياق، خاصة السياق اللغوي؛ كالوحدات الصوتية، والصرفية، والكلمات التي يتحقق بها التركيب والسبك، وكذلك طريقة ترتيب هذه العناصر داخل التركيب، إلى جانب طريقة الأداء اللغوي المصاحبة

([1]) انظر المرجع نفسه،ص 119 ،120 .

([2])انظر عماش: أحمد كاظم و حاتم:رياض حمود ،سياق الحال في الاتجاه الوظيفي مايكل هاليداي "أنموذجا"، مرجع سابق، ص135 .

للجمل أو ما يطلق عليه التطريز الصوتي، وظواهر هذا الأداء المصاحب المتمثلة في النبر، والتنغيم، والفاصلة الصوتية (أو الوقف)([1]).

المِحْوَرُ االثَّانِي: سِيَاقُ الحَالِ فِي التُّراثِ البَلاغِيّ العَرَبِيّ بَينَ التَّنظِيرِ والتَّطبِيقِ

وسياق الحال هو الموقف الكلامي الباعث على إنتاج نصٍّ أدبيٍّ، وهو السياق الخارجي، أو سياق الموقف، أو السياق غير اللغوي، وقد أفاده فيرث من إشارات مالينوفسكي في أبحاثه ودراساته الإنثروبولوجية، "ولكنه طور هذا المصطلح إلى مفهوم خاص يتفق مع تصوره عن اللغة، ومن ثمّ فهو يرى أن الكلمة ليست بذات معنى مستقل قائم بذاته، وأن وجودها ومعناها شيئًا نسبيًّا، يمكن ملاحظة كلٍّ منهما في سياق غيرهما من الكلمات والمعاني، أو عن طريق التقابل بينهما، وعلى ذلك فإن ما تدل عليه الكلمة ينحصر في وظيفتها التي لا تعرف إلا بمعرفة وظائف غيرها من الكلمات، وتأثيرها في إطار الظروف والملابسات التي تستعمل فيها، كالإشارات، والحركات الجسمية، أو الضحك، أو الغمز، أو غير ذلك. وهذه الظروف والملابسات هي التي تساعدنا على الوصول إلى تحديد تلك العلاقة بين الكلمات وما تدل عليه، بل هي التي تحدد أيضا وظيفة الكلمة ودلالتها"([2]).

([1])انظر صالح: محمد سالم،أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية،بتاريخ 2017-01-05 .

([2]) خليل:حلمي الكلمة دراسة لغوية معجمية، ط 2، دار المعرفة الجامعية ،1998 م، ص 95 .وانظر كذلك بشر:كمال، دراسات في علم اللغة(القسم الثاني)،دار غريب،القاهرة،1998م، ص181.

وبالتالي فإن سياق الحال عند فيرث يبحث في علاقة السّياق مع الظروف والملابسات المحيطة بالكلام، أو العناصر الخارجية غير اللغوية التي تظهر وقت الكلام الفعلي، وتتمثل في أسس ثلاثة؛ أولها: التكوين الثقافي للمتكلم والمخاطَب، وثانيها: الملابسات المحيطة بالسلوك اللغوي وقت الكلام، وثالثها: أثر الكلام في المشتركين؛ كالاقتناع، أو الألم، أو الإغراء، أو الضحك، أو غير ذلك([1]).

وإنَّ نظرةً متأنيةً صوب التراث البلاغي تُومئ إلى سبق الفضل لدى العرب القدامى(لا سيما البلاغيين) في الاهتمام بتلك الأسس الثلاثة التي نصّ عليها قول فيرث؛ فقد اهتموا بسياق الحال بوصفه قاعدة بلاغية تنصرف إلى حال المخاطَب واحتياجاته التعبيرية، ومن ثمّ لم يتركوا معنى يتصل بالحال إلا نبّهوا إليه، وأفاضوا الحديث فيه تنظيرًا وتطبيقًا.

فأما من ناحية التنظير فعندهم أن جوهر عملية التواصل الأدبي يكمن في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولهذا وجب على المتكلم أن ينتقي معانيه بدقة، ويوازن بينها وبين مستوى المخاطَبين الثقافي وواقعهم الاجتماعي، "فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلامًا، ولكلِّ حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"([2])؛ ومن ثمّ يستطيع الملاءمة بين الواقع الإدراكي والاستيعابي للمخاطَب؛ ذلك أنّ "مدار الأمر على إفهام كلِّ قومٍ بمقدارِ طاقتهم، والحملِ عليهم على أقدار منازلهم"([3]).

([1])انظر خليل:عبد النعيم،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين(دراسة لغوية نحوية دلالية)،دار الوفاء/الإسكندرية،ط 1، 2007م، ص282 .

([2])الجاحظ :أبو عثمان،البيان والتبيين، ،تحقيق عبدالسلام هارون ،مكتبة الخانجي،ط7 ، 1998 م ،ج1، ص138،139.

([3])المصدر نفسه،ص92 ،93.

وتلك الملاءمة تقتضي منه مراعاة التناسب والانسجام في العناصر المكونة لكلامه، وحسن التدرج بين أغراضه المتباينة، فيراعي لدى البسط الأحوال الطَّيبة السَّارة، ولدى الرِّقّة الأحوال الشَّاجية، ولدى الألم الأحوال الفاجعة، ولدى العناق واللثم، والماء والخُضرة، والنسيم الطيب والروض، والخمر والغناء والعزف الأحوال المستطابة([1])، فإذا أراد أن تصغى إليه قلوبهم، وتنصت إليه مسامعهم، عرض للأحوال الحسّيّة القريبة إلى مداركهم ومشاعرهم، مع ضرورة التغيير في المحتوى الفنّي الجمالي للمعاني، فذلك أدعى إلى بعث النشاط في نفوس مستمعيه، وإمدادهم بالحيوية ومتابعة الاستماع إليه؛ لأنّ "النفوس تسأم التمادي على حال واحدة، وتُؤثر الانتقال من حال إلى حال"([2]).

ولمّا كان الاهتمام بسياق الحال ملمحًا بلاغيًا يهدف إلى تحقيق شرطي الإقناع والإمتاع، عني البلاغيون بالأحوال النفسية الوجدانية التي تسيطر على المخاطَب وقت تلقيه الخطاب؛ وبناءً عليه كان على المتكلم إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه، فـ "الفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين؛ فيقصد مَحَابَّهُم، ويميل إلى شهواتهم، وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه، فيتجنب ذكره"([3])، مراعيًا الترتيب في العناصر المكونة لنصه، والتماسك بين مكوناته الموضوعية والأسلوبية، لأن كل إخلال يؤثر في تواصله مع المخاطَب، خاصة المخاطَب الذي تعوّد التسلسل في المعاني، "فالذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه عن بعض، وأن يحتال

([1])انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان، ط1986م، ص 357.

([2])المصدر نفسه،ص296.

([3])ابن رشيق:أبو علي الحسن،العمدة في محاسن الشعر ،مصدر سابق،ج1،ص223.

فيما يصل بين حاشيتي الكلام، ويجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح والنسيب، أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكمًا...ولا يظهر التباين في أجزاء النظام؛ فإن النفوس والمسامع إذا كانت متدرّجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فن إلى فن مباين له من غير جامع بينهما، وملائم بين طرفيهما، وجَدَت الأنفسُ في طباعها نفورًا من ذلك، ونبت عنه"([1]).

وأما من ناحية التطبيق، فهم يعدّون الحال من الملابسات السياقية المتعلقة بالتحليل والتفسير، ولهذا تحدثوا عن مراعاة أحوال المخاطَبين، والبواعث، والمناسبات المحيطة بالموقف في تحليلاتهم النصوص الشعرية وشرحها؛ ومن ذلك تحليل كلٍّ من عبد القاهر وابن الأثير للأبيات التالية ([2]) :

ولمَّا قضَينا منْ منًى كُلَّ حَاجَة ومسَّح بالأرْكان مَن هُو ماسحُ

[من بحر الطويل]

وشدَّت على دُهْم المَهارَى رحالُنا ولَم ينظرالغَادي الَّذي هُو رائحُ

([1])القرطاجني:حازم،منهاج البلغاء ،مصدر سابق،ص318،319.

([2])نحب أن نوضح أن الأبيات رُويت إما غير منسوبة إلى قائل معين وإما مختلفة النسبة،رواها غير منسوبة ابن الأثير،وأبو هلال العسكري، وابن طباطبا،والجرجاني عبدالقاهر ،وابن قتيبة ،وغيرهم ممن اقتصرت روايتهم على الأبيات الثلاثة التي ذكرناها. أما روايتها منسوبة فالقاضي الجرجاني يروي منها البيت الأخير فقط وينسبه إلى ابن الطثرية. والشريف المرتضى ينسبها إلى عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى.أما العباسي صاحب ((معاهد التنصيص)) فقد نسب الأبيات الثلاثة إلى كثيّر عزة. وذكر أنها نسبت أيضاً إلى ابن الطثرية، كما نقل عن أمالي المرتضى الأبيات الثمانية التي ذكرناها،وذكر أن المرتضى نسبها إلى عقبة بن كعب. وأما القيرواني في ((زهر الآداب)) فينسب الأبيات إلى كُثير . راجع عبدالرحمن القعود،أبيات: ((ولما قضينا من منى كل حاجة...)) بين النقد العربي القديم والحديث ، المصدر :مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 13، السنة 13، ص243-317.

أخَذنا بأطْراف الأحاديث بينَنــا وسالت بأعناق المُطيّ الأباطـحُ

فقد وقف عبدالقاهر وابن الأثير في تأملهما هذه الأبيات على دلالة الكلام في سياقه، فنظرا إلى سياق الحال وملابساته، ذلك السياق الذي يخبرُ عن أُلفَة الأصحاب وأُنسَة الأحباب، وما يليق بحال مَن وُفِّق لقضاء تلك العبادة الشريفة، ورجا حُسْنَ الثواب، وتنسَّم روائح أحبابه وخلانه؛ أما عبدالقاهر فسرُّ استحسانه لها راجع "إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن...وذلك أن أوَّل ما يتلقَّاك من محاسن هذا الشعر أنه قال: (ولما قضينا من منى كل حاجة)، فعبَّر عن قضاء المناسك بأجمعها، والخروج من فروضها وسننها من طريقٍ أمكنه أن يقصر معه اللفظ، وهو طريقة العموم، ثم نبَّه بقوله: (ومسَّح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذي هو آخِر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر،ثم قال: (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا)، فوصل بذكر مسح الأركان، ما وَلِيَه من زَمِّ الرِّكابِ وركوبِ الرُّكبَان، ثم دلَّ بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختصُّ بها الرفاق في السفر من التصرُّف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتطوّفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء،...ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه، وأفاد كثيرًا من الشواهد بلطف الوحي والتنبيه، فصرَّح أولاً بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الحديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل، وفي حال التوجُّه إلى المنازل، وأخبر بعد بسرعة السير، ووطاءة الظهر؛ إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، وكان في ذلك ما يؤكِّد ما قبله؛ لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع، زاد ذلك في نشاط الركبان، ومع زيادة النشاط يزداد الحديث طيبًا، ثم قال: (بأعناق المطي) ولم يقل: (بالمطي(؛ لأن السرعة والبطء يظهران غالبًا في أعناقها،

ويبين أمرهما من هواديها وصدورها، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة "([1]).

وعلى طريقة عبد القاهر يأتي تأمل ابن الأثير للأبيات،حيث اعتمد في تأمله على حال هؤلاء الحجيج، وانشغالهم بلذة الحديث بينهم في حوائج كثيرة، كانت سببًا في إرخائهم أزمة المطايا، فأسرعت بهم كمرور السيل على وجه الأرض، فيقول: "ألا ترى أن حوائجَ مِنى أشياءُ كثيرةٌ، فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع؛ إلى غير ذلك مما هو تالٍ له ومعقودُ الكونِ به، فكأن الشاعر صَانَعَ عن هذا الموضع الذي أومأ له، وعقد غرضَه عليه؛ بقوله في آخر البيت (ومسّح بالأركان ما هو ماسحُ) أي إنما كانت حوائجُنا التي قضيناها، وآرابُنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسْحُ الأركان، وما هو لاحقٌ به وجارٍ في القُربة من الله مجراه، أي لم نتعدّ هذا القدر المذكور إلى ما يحتملُه أولُ البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح. وأما البيت الثاني فإن فيه: (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا)، وفي هذا ما نذكره لتعجبَ به، وبمن عجب منه ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال: (أخذنا في أحاديثنا) أو نحو ذلك؛ لكان فيه ما يُكبِره أهل النسيب، فإنه قد شاع عنهم، واتسع في محاوراتهم علوُّ قدر الحديث بين الإلفين، والجذل بجمع شمل المتواصلين...فإذا كان قدرُ الحديث عندهم مرسلا على ما ترى، فكيف به إذا قيده بقوله: (أخذنا بأطراف الأحاديث)؟ فإن في ذلك وحيًا خفيًّا ورمزًا حُلوًا. ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها، ما يتعاطاه المحبون، ويتفاوضه ذوو الصبابة من

([1])الجرجاني:عبد القاهر،أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر،مطبعة المدني القاهرة ،ص22 ،23.

التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح؟ وذلك أحلى وأطيب، وأغزل وأنسب من أن يكون كشفًا ومصارحةً وجهرًا "([1]).

ومن ينعم النظر في تلك الأبيات يجد فيها أثرًا لسياق الحال في سياقها الداخلي، فقد جاءت منسجمة في بنائها الفني مع حال الشاعر التي سيطرت على وجدانه وقت أداء فريضة الحج؛ وهي حال يتنازعها شعوران متداخلان؛ شعور روحاني عميق يكون عليه الحجيج وقت قضاء تلك الشعيرة الدينية، وطمعهم في المغفرة من الله بعد أداء مناسكها، وشعور آخر يتسلّل إلى نفوس الحجيج بعد انتهاء الفريضة، حيث الشوق والحنين إلى الأهل والأحباب، وهنا تتداخل مشاعر التعلّق بالأراضي المقدسة والرغبة في طول البقاء فيها بمشاعر الحنين واستعجال العودة إلى الأوطان. "وأول ما يلاحظ في الأبيات اختيار(الطويل) وزنا لها، فجاء الوزن منسجما مع التجربة، فهو أولا أطول بحور الشعر التقليدي على الإطلاق، فهو في صورته الشائعة والتي جاءت عليها الأبيات المتقدمة: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فطوله ينسجم مع الإحساس بطول طريق العودة إلى الوطن، ومجيء سببين متواليين في منتصف كل شطر(عيلن) يمكن أن يعبر عن استعجال الشاعر العودة، بينما يعبر الزحاف الذي يصيب التفعيلة الأخيرة في كل شطر ويحول سببيها إلى وتد مجموع عن الملل من ما يبدو من طول الطريق. وفي البناء الصوتي للأبيات ما يتسق مع التجربة، فاختيار الحاء قافية مناسب جدا، ذلك لأن هذا صوت احتكاكي، يخدش الحنجرة فيصلح للتعبير عن الحرقة والألم، وقد زاد من أهمية القافية إصرار الشاعر على أن يأتي بالحاء في كل شطر من الأشطر الستة. ولو نظرنا إلى الكلمات التي تتضمن الحاء عدا كلمات القافية (حاجة، مسّح، حدْب، رحال، أحاديث) لوجدنا أن كل منها

([1]) ابن الأثير :ضياء الدين،المثل السائر ،تعليق أحمد الحوفي،وبدوي طبانة،دار نهضة مصر،ط2 ،ج2،ص67 ، 68 ،69.

أسهمت في شحن الأبيات بقوة تعبيرية كبيرة عن التجربة الشعورية، فكلمة (حاجة) بدلالتها على الافتقار، و(مسّح) بصيغته المضعّفة للدلالة على التباطؤ، و(حدْب) بكتم انفجار (الدال) بصوت (الباء)، و(رحال) بارتباطها بالدلالة على مشاق السفر، و(الأحاديث) بصيغة الجمع التي دلت على كثرة الحديث تعبيرا عن طول الطريق. وتؤلف الأبيات الثلاثة جميعها جملة واحدة، بصيغة جملة شرطية، وهذا الطول غير المعتاد في الشعر التقليدي القائم على وحدة البيت عبّر عن ضجر الشاعر بطول الطريق، وزاد من الأثر الشعوري لطول الجملة أن كل الأفعال التي وردت فيها جاءت بصيغة الماضي (قضين، مسح، شدت، أخذنا، سالت)، والفعل الوحيد الذي جاء بصيغة الحاضر هو(ينظر)، لكنه جاء منفيا، لقد تحققت شروط العودة (دلالة صيغة الماضي) لكن العودة لم تتم (دلالة نفي الفعل الحاضر). والصورة الشعرية في الشطر الأخير(وسالت بأعناق المطي الأباطح)ختمت الأبيات الثلاثة بضربة شعورية غاية في الجمال، إذ يبدو أن فعل (العودة) ليس بيد (العائدين) أنفسهم، فهم يمتطون جمالهم ويحثونها على المسير، غير أن طول الطريق يوحي بأن الطريق هو(الفاعل) الذي يتحكم بسرعة العودة لا (المطي)، فـ(الأباطح) هي التي (سالت) لا (المطي)"([1]).

كما عوّل البلاغيون في تحليلاتهم للنصوص على التكوين الثقافي للمخاطَب في فهم أبعاد النص السياقية، والوقوف على أسراره، فمَنْ لا ذوق له لن يدرك أسرار النظم ولا جمالياته، ولا شك أن النظر إلى حال المخاطَب واحتياجاته التعبيرية يلقي على المتكلم عبء التفكير فيه من حيث سماته الخاصة والعامة، وأبعاده الثقافية، والنفسية، والأخلاقية؛ إذ إنّ فهم النص له علاقة وطيدة بتلك الحال، فهي بمثابة مؤثّرات خارجية تلازم نشأته، ودواعٍ

([1]) العذاري: ثائر ،ابن قتيبة وإغفال التجربة الشعورية،الحوار المتمدن–العدد: 2142 – 27 / 12 / 2007 .

تقتضيه؛ ومن ذلك ما رُوي عن بشار أن أحد معاصريه قال له:إنك لتجيء بالأمر المهجن. قال: وما ذاك؟ قال: إنك تقول:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

[من بحر الطويل]

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

ثم تقول:

رَبَابَةُ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ

[من مجزوء الوافر]

لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال:" كل شيء في موضعه. وربابة هذه جارية لي، وأنا لا آكل البيض من السوق، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك، فهي تجمع علي هذا البيض وتَحظُره لي، فكان هذا من قولي لها أحب إليها وأحسن من: (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ)....إنما أخاطب كلا بما يفهم "([1]).

ففي هذه الأبيات تظهر براعة بشار في مراعاته حال المخاطَب(جاريته ربابة)، وطاقتها الاستيعابية للكلام(التكوين الثقافي لها)، وهذا فيما يسمى(بلاغة الموقف)التي تَعُدُّ الحال مُلابَسات سياقية تتعلَّق بها عملية الفهم. وعلى ضوء ذلك يصبح تمكُّن المعنى من نفس المخاطَب دليلا على تحقيق التواصل، فالبلاغة "كلُّ ما تُبلّغُ به المعنى قلبَ السامع، فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"([2]).

([1]) المرزباني:الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ،جمعية نشر الكتب العربية،القاهرة ،ص248 ،249.

([2])العسكري:أبو هلال،الصناعتين،مصدر سابق،ص10.

ومما عوّلوا عليه أيضًا في تحليلاتهم، أثر الكلام في المشتركين في الحدث الكلامي؛ من ذلك ما رواه ابن الأثير عن المتنبي وسيف الدولة([1])؛ حيث كان سيف الدولة بن حمدان مخيمًا بأرض ديار بكر على مدينة(ميَّا فارقين) فعصفت الريح بخيمته، فتَطيَّر الناس لذلك وقالوا فيه أقوالاً، فمدحه المتنبي قائلاً:

فَلاَ تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ

[من بحر المتقارب]

وَلَوْ بُلِّغَ النَّاسُ مَا بُلِّغَتْ لَخَانَتْهُمُ حَوْلَكَ الأَرْجُلُ

وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيبِهَا أُشِيعَ بِأَنَّكَ لاَ تَرْحَلُ

فَمَا اعْتَمَدَ اللهُ تَقْوِيضَهَا وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ

ففي هذه الأبيات أحاط المتنبي بملابسات خارجيّة صاغها بصنعته الشاعرة، مراعيًا حال مستمعيه حين اعتمد على حسن التعليل في سقوط الخيمة، فاعتذر عن سقوطها، وبعث روح التفاؤل في نفس سيف الدولة ومن حوله، ليقوّي من عزمه للارتحال من أجل الغزو ونصرة الإسلام، فقد عالج بذلك "أنفسًا أصابها التشاؤم، وضرَب صفحًا عن أقوال المتشائمين ومعتقداتهم، وأثنى على سيف الدولة ثناءً جميلاً، ومدَحَه بما هو أهله"([2]).

وبناء على ذلك كان اهتمام البَلاغِيين بسياق الحال يستلزم مراعاتهم لمقتضى الحال الذي يمثّل رؤية الأديب الخاصَّة لهذا الواقع، تلك التي يخرج التعبير الفني على لسانه مجسِّدًا لها مطابقًا إياها، وفي ضوء هذا التصوُّر فإن تمثُّل المعنى أو مقتضى الحال في التعبير الفني لا يتحقَّق إلا بالنظرة المتأنِّية

([1])ابن الأثير:ضياء الدين ،المثل السائر ،مصدر سابق،ج2،ص11 ،12.

([2])شبايك:عيد محمد،الشاهد الشعري في مبحثي الفصاحة والبلاغة3/3،دراسات ومقالات نقدية وحوارات أدبية،حقوق النشر محفوظة لموقع الألوكة ، 1433هـ / 2012م.

الواعية التي تحيط بالأحوال التي هي بواعث ومناسبات له من جهة، ثم بالخصائص والظواهر الفنية في ذلك التعبير والتي هي رموز فنية تلبَّس فيها وتشكَّل بها من جهة أخرى. إن رصد المعنى وفهمه في اللغة التقريرية المجرَّدة أمرٌ لا يحتاج إلى جهد أو عناء؛ لأن هذا المعنى هو الدلالة الظاهرة للعبارة، تلك التي يُستَطاع إدراكها عن طريق العلم بمواضعات اللغة، أمَّا المعنى في اللغة الفنية فهو أمرٌ وراء تلك الدلالة، ومن هنا كانت الحاجة إلى اصطحاب(القرائن) في فهمه وتذوُّقه، سواء أكانت تلك القرائن من داخل البناء اللغوي أم من خارجِه ([1]).

المِحورُ الثَّالثُ: سِيَاقُ المَقَالِ فِي التُّراثِ البَلاغِيّ العَرَبِيّ بَينَ التَّنظِيرِ والتَّطبِيقِ

وسياق المقال ـ حسب فيرث ـ هو السياق اللغوي الداخلي،أو سياق النص، أو تحليل النص وفق مستوياته اللغوية، فهو يبحث علاقة الكلمة بالكلمة الأخرى، وعلاقة الكلمة بالجملة، إضافة إلى علاقة الحروف والأصوات بالكلمة.

وقد فطن البلاغيون القدامى إلى أهمية سياق المقال والكيفية التي يكون عليها في العملية الإبداعية، فقد شكّل محورًا أساسيًّا في تنظيراتهم وتحليلاتهم النصيّة، وقعّدوا له بقولهم:. يكفي ألاَّ يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يُؤتَى الناطق من سوء فهم السامع، مع موافقة الحال، وما يجب لكلِّ مقام من المقال([2])، ومن ثمّ كان مدار اهتمامهم ـ تنظيرًا وتطبيقًا ـ هو الألفاظ المنظومة التي يتوخى بها معاني النحو في سياق لغوي خاص يضمها، وليست الألفاظ المفردة المجردة عن سياقها. "وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته

([1])انظر المرجع نفسه ،والموقع نفسه.

([2])راجع الجاحظ:أبو عثمان ،البيان والتبيين،مصدر سابق،ج1،ص87 ،ص136.

للاعتبار المناسب،وانحطاطه بعدم مطابقته له"([1]). وافتقاد تلك المطابقة يحيل الصياغة إلى نوع من العبث الذي لا يدخل حيّز البلاغية مطلقًا.

فأما من ناحية التنظير، فقد كان هَوَسُ المخاطَب الماثل في بالِ المتكلم يرغمه على بناء كلامه بناءً يرضي فيه ذلك المخاطَب، خاصة الذي ينشد حسن النظم، والانسجام مع النظام اللغوي المتعلق بتركيب الجملة؛ الأمر الذي جعل بعض البلاغيين يرفضون قول الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

[من بحر الطويل]

إذ إنه" لم يُرتِّب الألفاظ في الذكر، على مُوجب ترتُّب المعاني في الفكر، فكدّ وكدّر، ومنع السامع أن يفهم الغرضَ إلا بأن يُقدّم ويؤخر، ثم أسرف في إبطال النظام، وإبعاد المرام، وصار كمن رَمَى بأجزاء تتألف منها صورة، ولكن بعد أن يُراجَع فيها بابًا من الهندسة، لفرط ما عَادَى بين أشكالها، وشدة ما خالف بين أوضاعها"([2]).

ولهذا نظروا إلى طبيعة التكامل بين سياق الحال وسياق المقال، وأثر الحال المحيطة بالسياق في اختيار الألفاظ والأسلوب؛ إذ "إنّ اختيار اللّفظ، وإحلاله في الموقع المناسب في السياق هو أساس البلاغة، والإحسان في البيان، فإنّ إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتزلّ عن مكان لا تزلّ عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بحرانها، وتراها في مظانّها، وتجدها

([1]) القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،دار الكتب العلمية،بيروت ،ص11 ،12.

([2])الجرجاني:عبد القاهر،أسرار البلاغة،مصدر سابق،ص20.

غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار"([1]).

وتباعًا لذلك فإن اللغة مادة خام بين يدي المبدع يعيد تشكيلها وفق رؤيته، شريطة ألا يضيع رسوم اللغة بينه وبين مخاطَبيه، فليس النظم "إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخلُّ بشيء منها"([2])، وكأن الخصائص الفنية المتبادلة بين المتكلم والمخاطَب لا بدّ أن تشمل قوانين اللغة كما هي عند النحاة، خاصة الفروق بين التراكيب، فليس على المتكلم إلا أن "ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك:[زيد منطلق] و[زيد ينطلق] و[ينطلق زيد]... وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: [إن تخرج أخرج]، و[إن خرجتَ خرجتُ] ...وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: [جاءني زيد مسرعًا] و[جاءني يسرع]...فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له...وينظر في[الحروف] التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى... وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل...ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له...فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضلٍ فيه، وإلا وأنت تجد

([1])الباقلّاني: أبوبكر ، إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق أحمد صقر ، ط 3 ، دار المعارف / مصر ، 1971 ، ص 220.

([2])الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق،ص81.

مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه"([1]).

إذن هذا هو المطلوب من المتكلم أن يراعيه، وما على المخاطَب إلا أن يفطن لهذه المكونات ويكتشف جماليتها، لكي تتحقق له اللذة التأثرية، وأن تكون لديه قوة تمكنه من الاهتداء إلى الجمل الحسنة والألفاظ جيدة السبك وتآلفها مع المعاني، ليستطيع أن يكتشف الغاية التي من أجلها تم النظم على هذه الصورة، وكل هذا خاضع لاستعداده لتقبل النص والالتذاذ به، ويرى القرطاجني أن الاستعداد نوعان: خاص وعام، والاستعداد الخاص، يرجع إلى حالة المخاطب النفسية فقد تكون مهيّأة لأن تتأثر بالقول طبقًا لموافقته هواه، حيث تكون "للنفس حال وهوى قد تهيّأت بهما لأن يحركها قولٌ ما حسب شدة موافقته لتلك الحال والهوى، كما قال المتنبي:

إنما تنفع المقالة في المر ء إذا وافقت هوىً في الفؤاد"([2])

[من بحر الخفيف]

أما الاستعداد العام يرجع إلى حالة الجماعة،وحسن ظنهم بالشعر وبما يصدع به من حكم حيث تكون "النفوس معتقدة في الشعر أنه حكم وأنه غريمٌ يتقاضى النفوس الكريمة الإجابة إلى مقتضاه بما / أثابها(*) من هِزّة الارتياح لحسن المحاكاة، هكذا كان اعتقاد العرب في الشعر. فكم خطب عظيم هونه عندهم بيت، وكم خطب هيّن عظمه بيت آخر"([3]).

([1])الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق،ص81،82.

([2])القرطاجني:حازم،منهاج البلغاء،مصدر سابق ص121.

(*)في النص الذي حققه ابن الخوجة (أسلبها)،وهو تصحيف لم يلتفت إليه المحقق وصحته ما أثبتناه.

([3]) القرطاجني:حازم،منهاج البلغاء،مصدر سابق ،ص121،122.

وتباعًا لذلك بنى البلاغيون تصوّرهم حول أحوال المخاطَبين التي تفرض على الصياغة تشكيلًا بعينه، وقاموا بحصرها في ثلاثة مستويات إدراكيّة؛ ابتدائي، وطلبي، وإنكاري، ولكلّ حال من أحوال تلك المستويات بالضرورة بناءً لغويًّا معينًا، فأما الابتدائي فيرتبط بالحالة الذهنية المفرغة من المعرفة عن الموضوع المطروح صياغيًّا، وإنما سمي ابتدائيًّا لابتدائه المعنى في النفس، والمخاطَب غير متردد ولا منكر، وأما الطلبي فيرتبط بحالة التردد في قبول الحكم، وإنما سمي طلبيًّا لمواجهته ترددًا مسبوقًا بطلب، كأن النفس طالبة للخبر ليزيل الشك، ويمحو التردد، وأما الإنكاري فيرتبط بإنكار هذا الخبر؛ "ذلك أنّ المعلوم حكم العقل حال الكلام هو إفراغه في قالب الإفادة تحاشيًا عن اللغو الذي يخرج عن دائرة البلاغية، لأنَّ إطلاق الكلام لازمٌ منه الإفادة ضرورة، فإذا ألقي الكلام إلى من هو خالي الذهن عمّا يلقى إليه ليستحضر العملية الإسنادية مطلقة، كفى في ذلك تقديم الصياغة مضمّنة عناصر الحكم بالثبوت أو الانتفاء دون حاجة إلى وسائل إضافية توكيدية"([1])، أمَّا إذا دخل المخاطَب في حالة التحيّر في إدراك العلاقة بين طرفي الإسناد، فإنَّ هذه الحالة تستدعي صياغة طلبية تكتفي بمؤكد واحد يزيل هذا التحيّر، ليعود المخاطَب إلى حالة القبول، وقد تصل حالته إلى الإنكار، فيجب أن يؤكد له الخبر بحسب إنكاره قوة وضعفًا؛ فكلما زاد إنكاره زِيد له في التوكيد، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ سورة يس[الآية 13: 16]، فهذا الإنكار من أصحاب القرية اقتضى التغلب عليه بمجموعة من الأدوات التعبيرية المناسبة

([1]) عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،دار نوبار للطباعة/القاهرة،ط2/2007م،ص206.

التي تدفعه؛ فجاء مؤكدًا في المرة الأولى بإنّ، واسمية الجملة ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾، ولما اشتدّ تكذيب آل القرية لهؤلاء الرسل جاء الرد في المرة الثانية مؤكدًا بإنّ، واللام، واسمية الجملة، والقسم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ([1]).

وقد يفترض المتكلم في المخاطَب حالًا ليس لها ثبوت في الواقع أو وجود حقيقي عنده،ويجيء بكلامه مطابقًا لتلك الحال المفترضة، ويسمى هذا إخراج الكلام على خلاف الظاهر من الحال، ومن صوره([2])؛ تنزيل العالِم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل؛ أي خالي الذهن، وذلك لعدم عمله بما يقتضيه علمه؛ فيُلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل بأحدهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانهمْ مِنْ بَعْد عَهْدِهمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾سورة التوبة[الآية 12]. وكذلك تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد، وذلك إذا تقدم في الكلام ما يلوح له بالخبر ويومئ إليه، فيستشرف نفسه لمعرفته، وتتطلع للوقوف عليه، كما يفعل السائل المتردد، وحينئذ يؤكد له الحكم كما يؤكد للسائل المتردد، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ سورة هود[الآية 37]؛ أي لا تكلمني يا نوح في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، فهذا كلام يلوح بالخبر مع ما سبق في قوله: ﴿وَاصْنَعِ

([1])انظر التفتازاني:سعدالدين،مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني،ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية،بيروت ، ج1،ص205 ،206.

([2])راجع الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق ،ص316: 326.وكذلك السكاكي:أبو يعقوب،مفتاح العلوم، مصدر سابق،ص260،259. والقزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق،ص23 :26.وشروح التلخيص وهو مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني،ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي،وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1،ص211 :216 .

الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، فكان المقام مقام التردد في أن القوم هل حكم عليهم بالإغراق أم لا، فقيل: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾. ومنه قول بعض العرب:

فَغَنِّهَا فَهْيَ لَكَ الْفِـــداءُ إِنَّ غِناءَ الإبلِ الْحُـــداءُ [من بحر الرجز]

فالمعروف أن الإبل تنشط في سيرها بالحداء أي الغناء، فعندما قال الشاعر غنِّها يشتد سيرها، ويزداد نشاطها أصبح المخاطَب مترقبًا للخبر، فتستشرف نفسه لمعرفته، ولذلك ورد الخبر مؤكدًا: (إِنَّ غِناءَ الإبلِ الْحُـــداءُ). أو تنزيل غير المنكِر منزلة المنكِر، وذلك إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار يؤكد له الخبر، كقول الشاعر:

جَاء شَقيقٌ عَارضًا رُمْحَهُ إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحْ

[من بحر السريع]

فشقيق لا ينكر قوة بني عمه، وأنهم يملكون آلات القتال وأدوات الحرب من الرماح وغيرها، ولكن مجيئه هكذا مزهوًّا بشجاعته واضعًا رمحه على عرضه من غير تهيؤ للقتال دليل على إعجاب شديد منه، وإمارة أنه يعتقد أن بني عمه عزل لا سلاح معهم، ولذلك نزله الشاعر منزلة المنكر، وخاطبه خطاب التفات في قوله: (إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحْ)، فأكد له الكلام ليوقد فيه الشعور بقوة شكيمتهم وقدرتهم على مواجهة الخصم إذا اقتضى الأمر ذلك، فهذا من تنزيل العالم بالحكم منزلة المنكر. وقد ينزل المنكر منزلة المتردد، وهذه صورة متفرعة عن صور تنزيل المنكر منزلة غير المنكر؛ لأن غير المنكر يشمل المتردد، كما يشمل خالي الذهن، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ سورة المؤمنون: [الآية 16]، فهم ينكرون البعث ويستبعدونه، ومع ذلك فقد أكده تأكيدًا واحدًا، بينما أكد إثبات الموت في الآية السابقة عليها تأكيدين؛ ولعل السبب في ذلك أنه لما كانت أدلة البعث ظاهرة كان جديرًا بألا

ينكره أحد، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطَبون منزلة المترددين تنبيهًا لهم على ظهور أدلته، وحثًّا على النظر فيها.

وأما من ناحية التطبيق، فقد لاحظوا أنّ بلاغية سياق المقال لا تكمن في مجرد خرق الرتب فحسب، وإنما في تحولات الدلالة داخل نسيج النص، واحتماله وجهًا آخر من المعنى، ذلك أنه إذا جاء التركيب بيِّنًا فيه "أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه، حتى لا يُشْكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقُّه وأنه الصواب، إلى فكر وروية فلا مزيَّة، وإنما تكون المزيَّة، ويجب الفضلُ إذا احتمل في ظاهر الحال غيرَ الوجه الذي جاء عليه وجهًا آخر، ثم رأيت النفس تنبُو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت الذي جاء عليه حُسْنًا وقبولا تعدَمُهما إذا أنت تركته إلى الثاني"([1]).

ولهذا اتكؤا في تطبيقاتهم تلك على سياقات تعتمد في إنتاج دلالتها على المستوى العميق؛ مثل سياقات الحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل بحسب مقتضى الحال، فإن" كان مقتضى الحال طيّ ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصًا بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدّم ذكرها، وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب، أعني طي جمل عن البين ولا طيّها ـ فحسن الكلام تأليفه مطابقا لذلك"([2]).

([1]) الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،تحقيق محمود شاكر،مطبعة المدني القاهرة ،ص286.

([2]) السكاكي:أبو يعقوب،مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص73.

وهذه السياقات تمثل في الحقيقة تحوّلا شكليًّا مصاحبًا لتحوّل عميق يرجع إلى اعتبارات " تتسلط على الدّال داخل السياق فتحرره من ارتباطه الوضعي أحيانًا، وتردّه إلى هذا الارتباط أحيانًا أخرى، ومع هذا أو ذاك يحدث تغير في الناتج الدلالي "([1]).

أولا : سياقات الحذف والذكر

تقتضي قواعد اللغة ونظامها ذكر طرفي الإسناد لكن الاستعمال الأدبي قد يهمل ذكر أحدها اعتمادًا على قرينة الحال أو المقال، فقد يعمد المتكلم إلى سياق الحذف اعتمادًا على ذكاء المخاطَب، معوّلا على إثارة حسه، وبعثًا لخياله، "حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير. والمتذوق للأدب لا يجد متاع نفسه في السياق الواضح والمكشوف إلى حد التعرية، والذي يسيء الظن بعقله وذكائه، وإنما يجد متعة نفسه حيث يتحرك حسه وينشط، ليستوضح ويتبين، ويكشف الأسرار والمعاني وراء الإيحاءات والرموز، وحين يدرك مراده، ويقع على طلبته من المعانى يكون ذلك أمكن في نفسه، وأملك لها من المعاني التي يجدها مبذولة في حاق اللفظ"([2]).

وقد تكون حركة المتكلم الذهنية تجاه المحذوف قائمة على نوع من الإبهام الذي يجعل نفس المخاطَب تذهب في تقدير المحذوف كلّ مذهب دون قيد، كقول البحتري:

شَجْوُ حُسّادِهِ، وَغَيظُ عِداهُ أنْ يَرَى مُبصِرٌ، وَيَسمَعَ وَاعِ

[من بحر الخفيف]

([1])عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،مرجع سابق ،ص250.

([2]) أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني، القاهرة،ط 4 1996م ،ص153 ،154.

فالمعنى لا محالة أن يرى متبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره وأوصافه، وإنما كان المقصود من وراء غياب المفعول به أن يخلق في فضاء النص ناتجا محددا، "وذاك أنه يمدح خليفة وهو(المعتز)، ويعرّض بخليفة وهو (المستعين)، فأراد أن يقول: إن محاسن المعتز وفضائله، المحاسن والفضائل يكفي فيها أن يقع عليها بصر، ويعيها سمع حتى يعلم أنه المستحق للخلافة، والفرد الوحيد الذي ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها، فأنت ترى حساده وليس شيء أشجي لهم وأغيظ، من علمهم بأن ههنا مبصرًا يرى، وسامعًا يعي، حتى ليتمنّون أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها وأذنٌ يعي معها، كي يخفي مكان استحقاقه لشرف الإمامة، فيجدوا بذلك سبيلا إلى منازعته إياها"([1]).

وقد تكون قائمة على نوع من التقدير والتعظيم، أو الامتهان والتحقير، وهو ما يجعل المقام مزدوجًا في فاعليته الإنتاجية، ومثال الأول قول أبي الأسود الدؤلي يمدح عمرو بن سعيد بن العاصي:

سَأَشكُرُ عَمـرًا إِن تَراخَـــت مَنيَّتــي   أَيــاديَ لَم تُمنَن وإِن هيَ جَلَّت

[من بحر الطويل]

فَتىً غَيرُ مَحجوبِ الغِنى عَن صَديقِهِ   وَلا مُظهِرُ الشَّكوى إِذا النَّعلُ زَلَّتِ

"أي(هو فتىً)، والواقع أن بناء المقام على هذا النحو يعمل على ترديد المسند إليه مرة في صورة (الإضمار) الغائب، ومرة في وظيفة المسند(فتى)، وهو ما يعني أن التحرك الصياغي قد تمّ عن وعي بنقل المسند إليه من وظيفته الابتدائية إلى وظيفة الخبرية، وذلك عن طريق(تنكيره) بحيث لا يصلح للوظيفة الأولى، ومن ثم يخليها تقديريّا لهذا الدّال الغائب يشي بمنزلته النفسية عند المبدع"([2]) .ومثال الثاني قول الأُقَيشِرِ الأَسَدِيّ:

([1]) الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق،ص156.

([2])عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،مرجع سابق،ص219.

سَريعٌ إِلى اِبنِ العَمِّ يَلطِمُ وَجهَهُ وَلَيسَ إِلى دَاعي النَدى بِسَريعِ

[من بحر الطويل]

حَريصٌ عَلى الدُنيا مُضيعٌ لِدينِهِ ولَيسَ لِمـا في بَيتِهِ بِمُضـــيعِ

الأصل هو سريع ،وهو حريص، والحذف فيه لصون اللسان عن المحذوف تحقيرًا له. وقد يكون الحذف وسيلته في الانتقال من حالة الإقرار إلى حالة الإنكار، "كأن يكون المقام مقام الحديث عن شخص ما، ثم يذكر المتكلم صفة تصلح للالتصاق به(كفاسق)مثلا، فالحذف يتيح له أن ينكر عملية الإسناد عندما تدعو الضرورة إلى ذلك"([1]).

أو قائمة على نوع من الاحتراز عن الفهم الخاطئ، ومن ذلك قول البحتري: [من بحر الطويل]

وَكَمْ ذُدْتُ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسُوْرَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إلى الْعَظْمِ

فرد البنية إلى الأصل يقتضي أن تكون:(حززن اللحم إلى العظم)، إلا أنّ في مجيئه به محذوفًا، وتركه في الضمير قدّم إفادة إضافية، وهي الاحتراز من الفهم الخاطئ، لأن إحضاره يوهم المخاطَب بأن(الحزّ) كان في بعض اللحم دون كله، فإسقاط المفعول يزيل هذا الناتج السريع، ويجعل(الحز)قاطعًا لا يردُّه إلا العظم([2]).

أو قائمة على نوع من الاحتراز عن العبث عند تحقق المعنى في ذهن المخاطَب؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾سورة البقرة:[الآية:117]، فقد حذف المسند إليه(هو)؛لأن الخبر(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ)معلوم أنه لا يكون إلا لله سبحانه.

([1])المرجع نفسه،ص220.

([2]) انظر الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق،ص172،171.

أو قائمة على نوع من الاقتصاد في التعبير، وومنها أيضًا التنبيه على أن الوقت مع الحدث لا يتسع للتصريح بالمحذوف من اللفظ، أو أن الاشتغال بالتصريح به يفضي إلى تفويت أمر مهم، وتظهر هذه الفائدة كثيرا في باب "التحذير والإغراء"، ومنه ما في قول الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾سورة الشمس[الآية 11 : 13]. فحذرهم أن يمسوا ناقة الله، فحذف فعل التحذير، فقال: "ناقة الله" والتقدير: ذروا ناقة الله. وأغراهم بأن يحافظوا على شروط سقياها، فحذف فعل الإغراء فقال: "وسقياها" والتقدير: الزموا سقياها، أو الزموا شروط سقياها([1]).

وأما سياق الذكر فهو الأصل في تركيب الصياغة ولا مقتضى للعدول عنه إلى الحذف، "ولا شك أن سياقات الذكر تعتمد على اتساع دائرة العبارة بكل جزئياتها الدلالية، التي تقدم كثيرًا من المعاني التي تتصل باحتياجات الناس في التواصل بعضهم ببعض"([2])، وقد تناول البلاغيون مقامات الكلام التي تستدعي حضور طرفي الإسناد لأهداف بلاغية قد تتكئ في الغالب على احتياجات المخاطَب التعبيرية، وقد تتكئ على حالة المتكلم الشعورية.

فأما التي تعود إلى المخاطَب واحتياجاته التعبيرية، فمنها أن يدخل في منطقة ضبابية يصعب معها إدراك الغائب في النص واستحضاره، ويكون إعماله للفكر في الصياغة عقبة أمام بلوغه الدلالة؛ ومن ثمّ يصبح الذكر وسيلة للتغلب على تلك الضبابية([3])، فهذه الحال تقتضي من المتكلم زيادة الإيضاح والتقرير للمذكور في نفس المخاطَب تذليلا لتلك العقبة، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

([1])حبنّكة: عبدالرحمن حسن،البلاغة العربية:(أسسها وعلومها وفنونها)،دار القلم/دمشق،ط1 ،1996م،ج2، ص 41.

([2]) عبدالمطلب:محمد،البلاغة والأسلوبية،مرجع سابق،ص 326.

([3]) انظر عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،مرجع سابق،ص 224.

البقرة: [الآية :5]، فتكرار ذكر اسم الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ) أفاد مزيدًا من الإيضاح والتقرير باختصاص المؤمنين بالهدى والفلاح معًا، فالذين تميزوا بالهدى في الدنيا هم أنفسهم الذين تميزوا بالفلاح في الآخرة. ومن ذلك أيضًا قولك لمن سأل: من مرضعة الرسول وحاضنته؟ تقول في جوابه: حليمة مرضعة الرسول وأم أيمن حاضنته، فتذكر مرضعته وحاضنته خشية أن يلتبس على المخاطب إذا قلت: حليمة وأم أيمن من غير تعيين، فلا يدري أيهما المرضعة والحاضنة.

وقد يكون فهم المخاطب مرتبطًا بذكر أحد طرفي الإسناد دون القرائن، ففي هذه الحالة يتم التصريح به تعريضًا بغباوة المخاطب؛ كأن تقول لإنسان مسلم: القرآن كلام الله أنزله على قلب نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ الأنبياء:[الآية 63]، وذلك في جواب قولهم: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الأنبياء:[الآية 62]،" فلو قال: بل هذا، لكان المسند مفهوما لدلالة السؤال الصريح عليه إلا أنه عليه السلام عدل عن الحذف؛ لأن في الحذف تعويلا على ذكاء المخاطب وتنويها بفهمه"([1]).

وأما التي تعود إلى المتكلم استجابة لحالته النفسية تجاه المذكور، كما في قول البحتري يخاطب صاحبته:

أُصْفِيكِ أَقْصَى الوُدِّ،غَيرَ مُقَلِّلٍ إنْ كانَ أَقْصَى الوُدّ عندَكِ يَنفَعُ

[من بحر الكامل]

فأقصى الودّ كلمة يتصل معناها بأهم ما يجده الشاعر من الكلف والولوع بصاحبته فكررها وأشاعها، وكان يمكنه الاكتفاء بضميرها، لكنه أراد أن يشيع تلك المعاني في جو كلامه، ومنه قول قيس:

([1]) أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مرجع سابق،ص290.

أَلاَ لَيْتَ لُبْنَى لمْ تَكُنْ لِيَ خُلَّةً ولم تَرَنِي لُبْنَى وَلَمْ أدْرِ ما هِيَا

[من بحر الطويل]

حيث كرر الشاعر اسم صاحبته، وكان يمكنه الاستغناء بضميره، ويكتفي بقوله: (ولم ترني ولم أدر ما هيا)، ولكنه يؤثر الذكر لأن فيه ما يثير أشواقه، ويلذ قلبه.

ومن ذلك أيضًا الرغبة في بسط الكلام وإطالته، ويتأتى حيث يكون إصغاء المخاطَب مطلوبًا للمتكلم، ومن ذلك قول الله تعالى حكايةً عن سيدنا موسى[عليه السلام]: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ وكان يكفي في الجواب أن يقول: (عصا)، لكنه أضاف العصا إلى نفسه؛ حبًّا في إطالة الكلام، ولهذا لم يكتفِ بذكر المسند إليه، بل أعقب ذلك بذكر أوصاف لم يُسأل عنها، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ سورة طه:[الآية 18]؛ رغبة في إطالة الكلام([1]). إلى غير ذلك من مقامات الذكر، كإظهار تعظيم المذكور أو إهانته؛ فالأول نحو: القهار يصون عباده، والثاني نحو: اللعين إبليس، أو التبرك بذكره نحو: محمد رسول الله خير الخلق، أو الاستلذاذ نحو قول قيس:

بِاللَّهِ يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلاَيَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ؟

[من بحر البسيط]

([1])راجع أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مرجع سابق،ص181 ،191.وكذلك انظر عبدالمطلب:محمد،البلاغة والأسلوبية،مرجع سابق،ص 327.

فذكر المسند إليه وهو(ليلى)للاستلذاذ بذكرها، وكان يمكنه حذفها([1]). أو لأن ذكره يعبر عن حالة نفسية يضمرها، قد يبديها بمجرد ذكر من يهواه، أو ذكر الأماكن التي التقاه فيها، من ذلك قول امرئ القيس:

وَتحسِبُ سَلمَى لا تَزَالُ تَرى طَلاً من الوَحشِ أوْ بَيضًا بمَيثاءِ مِحْلالِ [من بحر الطويل]

وتحسِبُ سَلمَى لا تزالُ كَعَهْدِنَا بوَادي الخُزَامى أوْ على رَسّ أوْعالِ

فهذا التكرار يؤكد على ذهول الشاعر واندماجه في ذكريات أيامه التي ابتلعها الماضي([2]).

ثانيًا: سياقات التعريف والتنكير

أما سياقات التعريف([*])فتنتمي إليها كل صور المعرفة لطرفي الإسناد وفق دلالة المعنى المفاد من طبيعة الصياغة وخواص التركيب، وهو النظام الذي يمتلكه المتكلم،" كما أن هذه السياقات تستمد قِوامها من الحصر النحوي لمسألة التعريف، بحيث يكون لكل نوعية من أنواع المعارف سياقها الذي يمتد ليفسر كلَّ ما يصدر من تراكيب من خلال مقامات الكلام"([3]).

وأُولى هذه السياقات التعريف بالإضمار، وفيها يتكئ المتكلم على المقام الصياغي، الذي قد يقتضي الدلالة على التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة؛ وهذه

([1])انظر عرفة:عبد العزيز عبد المعطي،من بلاغة النظم دراسة تحليلة لمسائل علم المعاني،عالم الكتب،ج1،ط2 ،1984م، ص36 .

([2]) أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مرجع سابق،ص295.

([*])هو ما دلّ على شيء بعينه،وهو ـ حسب النحويين ـ إما أن يكون بالإضمار،أو بالعلمية،أو بالإشارة،أو بالموصولية، أو بأل، أو بالإضافة إلى أحد المعارف.

([3]) عبدالمطلب: محمد،البلاغة والأسلوبية،الشركة المصرية العالمية ـ لونجمان ،ط1، 1994م ،ص343.

المقامات رغم كونها لغوية فإنها لا تخلو من الأسرار البلاغية التي لا تظهر إلا لمن يعمل عقله في السياق ويتأمله؛ من ذلك ضمير المتكلم في مقام التكلم، كقول بشار:

أنَا المرعَّثُ لا أَخْفَى على أحدٍ ذرَّت بي الشَّمسُ للقَاصِي ولِلدَّانِي

[من بحر البسيط]

والسرُّ البلاغي في التعبير بضمير المتكلم؛ إظهار الفخر والاعتداد بالنفس وذيوع الصيت. ومثله قول ابن الدمينة:

وَنَحنُ التّارِكُونَ عَلَى سَلِيلٍ مَعَ الطَّيرِ الخَوامِعَ يَعتَرِينَا

والخوامع الضباع يعني أنه لم يقتل سليلا، ويطعم بها الطير، والضباع سواهم.

ومن ذلك أيضًا ضمير المخاطَب في مقام الخطاب، والأصل في الخطاب أن يكون مع معين، فإن تُرك إلى غير معين، كان الغرض إرادة تعميم الخطاب وتوجيهه إلى كلّ من يصله هذا الخطاب، وعليه يكون السرُّ البلاغي في مثل هذا إرادة العموم، كقول المتنبي:

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإنْ أنْتَ أكْرَمتَ اللّئِيمَ تَمَرّدَا

[من بحر الطويل]

فليس المراد بالضمير في قوله: أكرمتَ وأحسنتَ مخاطبًا معينًا، وإنما المراد أي مخاطب في المطلق، وفي هذا إشارة إلى أن نكران الجميل من اللئيم لا يختص بها فرد دون آخر.

وأما مقام الغيبة فيستدعي ضميره في الغيبة، شريطة أن يتقدم عليه مرجعه، من مثل قول أبي تمام يمدح المعتصم بالله:

بِيُمْنِ أبي إسحاق طالتْ يدُ الهدى وقامتْ قناةُ الدِّينِ واشتدَّ كاهلُهْ

[من بحر الطويل]

هُوَ البَحرُ مِن أَيِّ النَواحي أَتَيتَهُ فَلُجَّتُهُ المَعروفُ وَالجودُ ساحِلُه

وتكمن البلاغة في استخدام ضمير الغيبة(هو)في قول أبي تمام:(هو البحر)كونه يحمل معنى الإشارة، وذلك لإثارة انتباه المخاطَب، ولتحفيز ذهنه نحو الممدوح؛ حيث يرجع بذاكرته إلى مرجع الضمير المصرّح به في البيت السابق عليه في قوله: (بِيُمْنِ أبي إسحاق).

وثاني هذه السياقات التعريف بالعلمية، نحو قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾الإخلاص [الآية:1]؛ إذ اقتضى مقام بيان التوحيد وتقرير الوحدانية التعبير بلفظ الجلالة(الله)؛ لأنه أعون على ترسيخ ذلك في ذهن المخاطَب. وقد يقتضي المقام(الإهانة)مثل: (أبو جهل صديقك، وأنف الناقة خرج)، أو(التبرك)نحو: الله الهادي ومحمد الشفيع، أو(التفاؤل)نحو: سعد في دارك، أو(التطير)نحو: السفاح في دارك. وقد يقتضي المقام إرادة التلذذ بذكر اسم المتحدث عنه، نحو قول قيس:

بِاللَّهِ يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلاَيَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ؟

[من بحر البسيط]

فالمسند إليه في قوله: أَمْ لَيْلَى، جاء معرفًا بالعلمية، رغم أن السياق يقتضي أن يعرف بالضمير، فيقول: أم هي من البشر؛ لتقدم مرجعه، ولكن الشاعر أورده علمًا لقصد التلذذ.

وثالث هذه السياقات(التعريف بالإشارة)، وفيه يتم الجمع بين قصد المتكلم، وطبيعة المخاطَب، وحسيّة المشار إليه؛ إذ تتكفّل الإشارة بإحضار أحد طرفي الإسناد في ذهن المخاطَب حسًّا، ومن ثمّ يتحقق لكلام المتكلم المطابقة لمقتضى الحال؛ نظرًا لهذه الخصوصية الكامنة في اسم الإشارة التي

تستدعي التمييز والتعيين([1]). وقد تكون مهمة الإشارة في سياق التعريف، تحسين المشار إليه أو تقبيحه، فأما إرادة التحسين، فمثل قول ابن الرومي:

هذَا أبُو الصَّقْرِ فَرْدًا في مَحَاسِنِه مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِ والسَّلَمِ

[من بحر البسيط]

أراد ابن الرّومي وصف أبي الصقر بأنّه فردٌ في محاسنه من باب الإطراء. وقد يكون التعريف بالإشارة متجهًا إلى إنتاج إرادة تكريم المشار إليه، والتعبير عن ارتفاع منزلته، ومنه قول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾سورة البقرة [الآية:2]. وأما إرادة التَحْقِيرِ فمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ سورة الأنبياء[الآية : 36]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة النور:[الآية 16]، فجاء ذكر حديث الإفك باسم الإشارة "هذا" في ثلاثة مواضع: [هذَا إفْكٌ]، و[مَا يكونُ لنا أن نَتَكلّم بهذا]، و[هذا بُهْتَانٌ عَظيمٌ] لتمييزه أبلغ تمميز، وإبرازه بما فيه من قبح وشناعة وظلم لا يليق بالمؤمنين.

وقد يكون للتعريض بغباوة المخاطَب، إذ لاَ تكفيه الدلالات الفكريّة، فيلجأ المتكلم إلى استخدام الإشارات الحسيّة، ومثله قول الفرزدق يفتخر على جرير:

أولئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إذا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

[من بحر الطويل]

ورابع هذه السياقات(التعريف بالموصولية)، وفيه يعبّر المتكلم عن أحد طرفي الإسناد باسم الموصول، لعدم علم المخاطَب بالأحوال المختصة به

([1])انظر عبدالمطلب:محمد،البلاغة والأسلوبية، مرجع سابق،ط1، ص346.

سوى الصلة، وحينها تكون مهمة الصلة في السياق إرادة التنبيه على غفلة المخاطَب؛ من ذلك قول عبدة بن الطيب من قصيدة يعظ فيها بنيه:

إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكم يَشْفِي غَلِيلِ صُدُورهم أَنْ تُصْرَعُوا

[من بحر الكامل]

فاسم الموصول هنا للتنبيه على خطأ وقعوا فيه، حيث أحسنوا الظنّ بقوم يتمنون لهم الهلاك والدمار. وقد تكون مهمة الصلة إرادة القصر، "وهذه الدلالة الهامسة تكمن في طبيعة التعريف بالصلة كما أشرنا؛ لأنها لا بد أن تكون أمرًا معروفا كما يقول النحاة، وترى هذه الإيماضة الجاذبة حين تتأمل مواقعها في الكتاب العزيز اقرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾المؤمنون:[الآية :78]، تجد أن التعريف بالصلة فوق دلالته على الاختصاص يشير إلى أن أمر إنشاء السمع، والأبصار ذلك الأمر الذي تشغل به النفوس، أو ينبغي أن تشغل به مختص به سبحانه، ولو قال: هو أنشأ لكم السمع، والأبصار لخلا التعبير من هذه الإشارة"([1]).

وخامس هذه السياقات(تعريف أحد طرفي الإسناد بـ" أل ")، وفيه يعتمد السياق على استحضار المتكلم والمخاطَب معًا في ممارسة فاعليته؛ على أساس أنّ بينهما عهدًا تقدّم صراحة أو كنايةً، فالمعهود الصريح، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ النور: [الآية: 35]. فكلمة المصباح مسند إليه جاء معرفًا بأل؛ للإشارة بها إلى معهود تقدّم ذكره صراحة، وهو قوله: (فِيهَا مِصْبَاحٌ). والمعهود الكنائي، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾آل عمران:

([1]) أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مرجع سابق،ص305.

[الآية:35، 36]؛ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، فكلمة الذكر مسند إليه جاء معرفًا بأل؛ للإشارة بها إلى معهود تقدّم ذكره كناية، وهو قوله على لسانها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، لأن التحرير لخدمة بيت المقدس خاص بالذكور دون الإناث.

ومن ذلك قولنا: زيد المنطلق، فكلمة المنطلق مسند جاء معرفًا بأل، للإشارة بها إلى معهود لدى المخاطَب، وهو الانطلاق ثم أثبته لزيد، ولهذا كان من الخطأ أن نقول: زيد المنطلق وعمرو؛ لأن الانطلاق معرف للمخاطب ومعين. وفي تعريف المسند بأل إفادة قصره على المسند إليه حقيقة أو مبالغة؛ فأما قصر الحقيقة، كقولنا: أبو بكر الخليفة؛ إذ لا أحد من بين الصحابة يلقب بخليفة رسول الله غيره، ونحو قولنا: عمرو الأمير؛ إذا لم يكن ثمة أمير سواه، وأما قصر المبالغة، فقولنا: زيد الجواد، حيث يكون الكلام موهما أن الكرم لم يوجد إلا فيه، فلا اعتداد بسخاء غيره وجوده، إذ لا يصل إلى رتبته.

وسادس هذه السياقات(تعريف أحد طرفي الإسناد بالإضافة)، وهو عملية يفرضها السياق على المتكلم إذا كان المقام يقتضي الإيجاز والاختصار؛ حيث لا يتسنّى له إحضار أحد الطرفين في ذهن المخاطَب إلا به، كما في قول جعفر بن علبة الحارثي حين حبس بمكة:

هَوايَ معَ الرَّكْبِ اليَمَانِينَ مُصْعَدٌ جَنِيبٌ وجُثْمانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ

[من بحر الطويل]

والشاهد قوله: (هواي)، حيث عرف المسند إليه بالإضافة؛ قصدًا إلى الإيجاز لضيق المقام، لكونه سجينًا والحبيب راحل. أو يكون مقتضيًا الإجمال الذي يتعذر معه التفصيل، كقول الحارث الجرمي:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أخِي فَإذَا رمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

[من بحر الكامل]

ولو عددهم لطال. وقد يكون السياق مقتضيًا التعظيم أو التحقير، فمن التعظيم قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾الفرقان:[الآية:63]، ففي إضافة المسند إليه(عباد)إلى لفظ الجلالة (الرحمن)تعظيم للمؤمنين وتزكية لهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة الأنعام:[الآية 153]. ففي إضافة المسند(صراط)إلى ياء النسب التي تعود إلى الله (عز وجل)تعظيم لهذا الدين ولمن يتبعونه لأنهم ينتسبون إلى دين الله ويسيرون في طريقه المستقيم، إضافة إلى أن اسم الإشارة أفاد بيان أنّ المشار إليه واضح جليّ. ومن التحقير قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾النساء: [الآية: 76]، ففي إضافة المسند إليه(أولياء)إلى لفظ (الشيطان)تحقير للمشركين وإذلال لهم.

وأما التنكير(*)، فقد يلجأ المتكلم إليه لمقاصد بلاغية عدّة منها؛ إفادة النوعية والحصر؛ وذلك بأن يقصد المتكلم بالحكم نوعًا خاصًّا من أنواع الجنس غير ما يتعارفه المخاطَب، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ البقرة: [الآية: 7]، فقد نكر المسند إليه(غشاوة)؛ لأن المقصود غطاء التعامي عن آيات الله، وهو نوع من الأغطية غير ما يتعارفه الناس. وقد يقصد إفادة العموم وعدم الحصر إذا اقتضى المقام ذلك، على نحو قولنا: مالك فقيه، وشوقي شاعر؛ إذا أردنا إفادة الإخبار بمجرد الفقه في مالك، والشعر في شوقي، فقد جاء المسند نكرة لإفادة عدم حصر الفقه في مالك، والشعر في شوقي. وقد يقصد المتكلم إفادة التعظيم والتحقير، نحو قول أبي السمط مروان بن أبي حفصة:

(*)هو ما دلّ على شيء لا بعينه ،فهو ضد البيان والوضوح،ويرتبط بالجهل بحقيقة الشيء وإطلاقه دون تعيينه.

فَتىً لا يُبالِي المُدْلِجُونَ بِنُــورِهِ إلى بــابِهِ أَلاَّ تُضِــيء الكَــواكِــبُ

[من بحر الطويل]

له حاجِبٌ عن كُلِّ أَمْرٍ يُشِينُهُ ولَيْس له عن طالِبِ العُرْفِ حاجِبُ

فكلمة حاجب وقعت مسندًا إليه وتكررت نكرةً في شطري البيت الثاني، وتنكيرها في الشطر الأول للتعظيم، وفي الشطر الثاني للتحقير، والذي يدل على إرادة التعظيم أولًا والتحقير ثانيًا؛ أن السياق سياق مدح وتنويه بنبالة الممدوح وكرمه. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة [الآية: 2]. أي هو هدى، القرآن نور للمتقين، فكلمة هدى مسند وتنكيرها لتعظيم هداية القرآن الكريم، وأنها بلغت درجة لا يمكن أن درك كنهها، ولا تحد بمعيّن([1]).

وقد يقصد المتكلم إفادة التكثير والتقليل، فأما التكثير، فنحو قولهم: إن له لإبلًا وإن له لغنمًا؛ يريدون بذلك الكثرة، وأما التقليل كما في قول الله تعالى:﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة:[الآية: 72]؛ فالتنكير في المسند إليه (رضوان) تفيد التقليل،لأن المعنى وقليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، والقليل من الله كثير وكثير([2]).

([1]) انظر عرفة:عبد العزيز عبد المعطي،من بلاغة النظم دراسة تحليلة لمسائل علم المعاني،مرجع سابق ، ص258 .

([2])انظر أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مرجع سابق،ص216.

ثالثًا: سياقات التقديم والتأخير

ويمكن تتبع سياق التقديم والتأخير وتنويعاته في نمطين اثنين يتصلان بطرفي الإسناد ومتعلقاتهما، وهذين النمطين هما؛ النمط التركيبي الثابت، والنمط التركيبي المتغيّر؛ يتمثل النمط الثابت في تواجد أطراف الإسناد وما يتصل بها من متعلقات في الصياغة، أما النمط المتغيّر، فيتمثل في التحول عن رتب بعض هذه الأطراف، أو تحريكها من أماكنها الأصلية التي اكتسبتها من نظام اللغة إلى أماكن جديدة ليست لها في الأصل، وقد يتمثل في تثبيت أحد الأطراف في مكانه الأصلي وإعطائه حتمية يمتنع معها نقله أو تحريكه([1]).

وعن هذين النمطين ينتج المعنى والدلالة؛ ففي قولنا: (اسم الله اهتديت به)، يكون المعنى(أن هدايتي من الله عزّ وجل)، بينما تأتي الدلالة من وراء تقديم المسند إليه(اسم الله)على المسند (اهتديت) التبرّك بذكر اسم الله . وقد يكون المعنى في قولنا: (ليلى أجمل ذكرى)هو شدة التعلّق بها والوله في حبّها، بينما تكون الدلالة الاستلذاذ بذكر من تقدّم، وقد يقدّم بعض متعلقات الفعل للاهتمام به، نحو قول عدي بن زيد:

أكلَّ امْرِئٍ تَحسَبِينَ امْرَءًا ونَارٍ تَوَقَّد بِاللَيْلِ نارًا [من بحر المتقارب]

"فمزيّة تقديم المفعول في البيت هو الاهتمام به، ومظهر ذلك هو تسليط الإنكار عليه، حيث أنكر الشاعر على مخاطبته أن كلّ الناس في حسبانها سواسية لا فرق بين كامل وناقص، وأن كلّ نار في زعمها نار كرم وسماحة"([2]).

([1]) انظر عبدالمطلب:محمد،البلاغة والأسلوبية،مرجع سابق،ص 335، 336.

([2]) انظر عبدالمطلب:محمد،البلاغة والأسلوبية،مرجع سابق،ص 334.

وليس بخافٍ أن لتقديم(الشركاء)في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾الأنعام: [الآية:100] دلالة لا سبيل إليها مع التأخير، إذا قيل: [وجعلوا الجنَّ شركاء لله]، وبيان ذلك أنّ جملة المعنى؛ أنهم جعلوا الجنّ شركاء عبدوهم مع الله، "وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم(الشركاء)يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجنّ ولا من غير الجنّ. وإذا أُخِّر فقيل: (جعلوا الجنّ شركاء لله)لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجنّ مع الله تعالى، فأما إنكار أن يُعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجنّ وغير الجنّ، فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه"([1]).

وبالعودة إلى الصياغة النحوية، وكيف أفادت هذه الإفادة؛ فإن التقدير يكون مع التقديم أن(شركاء) مفعول أول لجعل و(لله)في مقام المفعول الثاني، ويكون(الجنّ)على تقدير كلام ثانٍ، كأنه قيل: (فمَنْ جَعَلوا شركاءَ لله تعالى؟) فقيل:(الجنّ)، وإذا كان التقدير ـ كذلك ـ وقع الإنكار على كون شركاء لله تعالى على الإطلاق، من غير اختصاص شيء دون شيء. وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجنّ قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجنّ، لأن الصفة إذا ذكرت مجرَّدة غير مُجْراةٍ على شيء، كان الذي تعلق بها من النفي عامًّا في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة؛ ذلك أنّ حكم الإنكار أبدًا حكمُ النفي. وإذا أُخِّر فقيل: (وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله)؛ كان(الجنّ) مفعولًا أوّل، و(شركاء) مفعولًا ثانيًا. وعليه كان الشركاء مخصوصًا غير مُطْلَقٍ، من حيث كان محالًا أن يُجرى خبرًا على الجنّ، ثم يكون عامًّا فيهم وفي غيرهم، وهكذا

([1])انظر الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق،ص286، 287.

احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجنّ خصوصًا، أن يكونوا شركاء دون غيرهم([1]).

وقد يتقدّم ما حقّه التأخير في الجملة للدلالة على الاختصاص؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾الفاتحة:[الآية 5]؛ إيَّاكَ: الأولى مفعول به(متعلق الفعل نَعْبُد)، وإيّاكَ: الثانية مفعول به(متعلق الفعل نَسْتَعِين)، والأصل في المفعول به أن يكون متأخرًا عن عامله، فدلّ تقدّم العامل على اختصاصه بالفعل، ويكون المعنى: لا نَعْبُد إلاَّ إيّاك، ولا نستعين إلاَّ بك، بينما تكون الدلالة تخصيص الله عزّ وجلّ بالعبادة والاستعانة وانفراده بهما. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾ آل عمران:[الآية 158]؛ إلى الله: معمول لفعل﴿تُحْشَرُونَ﴾لأنّه معلّقٌ به، والأصل فيه أن يكون متأخّرًا عن عامله، ويكون المعنى أنّ الحشر يوم القيامة يكون إلى الله وحْدَه، فهو وحده الذي يحاسِبُ عباده ويجازيهم يوم الدين، بينما تكون الدلالة تخصيص الله وحده بحشرهم وحسابهم دون غيرِه.

وفي قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾البقرة:[الآية 143]؛ يُلاحظُ أنَّ الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾أُخّرَتْ عن عامله؛ لأنّ المقصود هو إثبات شهادة المسلمين على الناس دون تخصيصهم بهذه الشهادة، فقد يشهد عليهم غيرهم، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾فقد قُدِّم الجار والمجرور﴿عَلَيْكُمْ﴾على عامله﴿شَهِيدًا﴾؛ لأنَّ المقصود هو تخصيص الرسول بالشهادة عليهم، فهو المبلّغ عن ربّه هذا الدين للعالمين ولا مبلّغ غيره. "ومنه قول المتنبي يمدح بَدْر بْنَ عمّار:

بِرَجَاء جُودِكَ يُطْرَدُ الْفَقْرُ وَبِأَنْ تُعَادَى يَنْفَدُ الْعُمْرُ

([1])انظر الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،مصدر سابق ،ص287.

قدّم الصلة (برجاء جودك) على عاملها (يُطْرَد) والصلة (بأنْ تُعَادَى) على عاملها (يَنْفَدُ) لأنه أراد على سبيل المبالغة والادّعاء أنْ يخُصَّ برَجاءِ جوده طردَ الفقر، دون رجاء جود غيره، وأنّ يَخُصَّ بِمُعَاداته نفاد عمر من يعادِيه من الناسِ، دون معاداة غيره من الناس"([1]).

رابعًا:سياقات الإيجاز والإطناب

ومما انتبه إليه البلاغيون القدامى أن سياقات الإيجاز والإطناب(*)لها مقتضيات أحوال تلائمها، ومناسبات تقتضيها، ودواعٍ بلاغية تستدعيها؛ فأما سياقات الإيجاز فهي على نمطين؛ أولهما يعتمد فيه المتكلم في تأدية معنى من المعاني على عبارات قصيرة تستدعي بطبيعة معناها قرائن ذهنية، يستغني بها المخاطَب عن العبارات الطويلة دون أن يقدر في الكلام محذوفًا، ويسمى إيجاز القصر ومعناه: الإتيان بمعانٍ كثيرة في ألفاظٍ قليلة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة [الآية 179]، وهذه الآية فاقت في مدلولها ما كان يجري مجرى المثل عند العرب، وهو قَوْلُهم: القَتْلُ أنْفى لِلْقَتْلِ؛ ذلك أنّ الإنسان حين يعلم أنه متى قَتَل قُتِل قصاصًا، كان ذلك داعيًا ألا يجترئ على القتل، وفي القصاص منه رادع لغيره، ومن ثم يمتنع الناس عن قتل بعضهم بعضًا، ويكون ارتفاع القتل حياة

([1])حبنّكة: عبدالرحمن حسن،البلاغة العربية:(أسسها وعلومها وفنونها)،مرجع سابق،ج1، ص539.

(*)فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط ،والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم (مفتاح العلوم ص388)،أو هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة(المثل السائر)ج2 ، ص344.بينما تكون المساواة على حدٍّ وسطٍ بين الإيجاز والإطناب؛فتكون فيها المعاني بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض(كتاب الصناعتين ص179).

لهم. وقد ظهر للبلاغيين([1])ما في الآية من بديع متقن؛ ذلك أنها أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة؛ أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة: منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به، وأما الإيجاز في العبارة، فإن الذى هو نظير: (القتل أنفى للقتل) قوله تعالى: (القصاص حياة)، والأول أربعة عشر حرفا، والثانى عشرة حروف. وأما بُعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة، فإن في قولهم: (القتل أنفى للقتل)تكريرا غيره أبلغ منه، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة. وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة.

وأما ثانيهما فيعتمد فيه المتكلم في تأدية المعنى على كلام قصير حذف بعضه، ويكتفي المخاطَب بدلالة القرائن على ما حذف للوصول إلى المعنى، ويسمى إيجاز الحذف، وهو على خمسة أنواع، هي: الاقتطاع، والاكتفاء، والتضمين، والاحتباك، والاختزال([2])؛ فأما الاقتطاع، فهو حذف بعض حروف الكلمة أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة، تخفيفا على مخارج الحروف، أو لداعي السرعة، أو لأجل القافية في الشعر، أو الفاصلة في النثر، أو نحو ذلك من

([1])انظر ابن الأثير:ضياء الدين ،المثل السائر ،مصدر سابق،ج2،ص339.وكذلك العسكري:أبو هلال،الصناعتين، مصدر سابق،ص 175 :177.وكذلك السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،تعليق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون،دمشق/ سوريا ،ط1 ، 2008م ، ص531 : 533.

([2])راجع السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،مصدر سابق، ص 541 : 544. وكذلك الباقلاني:أبو بكر، إعجاز القرآن ،تحقيق السيد أحمد صقر،دار المعارف /القاهرة، ص272 .

دواعٍ بلاغية، ومنه حذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾الفجر[الآية 4]. فقد سُئل الْأَخفش عن هذه الآية فقال: "عادة العرب أنها إذا عَدلت بِالشَّيء عن معناه نقصَت حروفه، وَاللَّيل لمَّا كان لا يَسرِي وَإِنَّما يُسْرَى فِيهِ نَقَصَ منه حرف"([1]).

وسياق الآية جاء في سياق تعريض بالمعاندين المكذبين للنبي ﷺ، فقد أقسم الله بتلك الأزمان لتأكيد حصول المقسم عليه، وهو تسليط العذاب على المشركين، كما سُلّط عَلى عادٍ وثمُودَ وفِرعَون. وانصرام الليل بظُهُورِ الفجر يناسب ذلك الاقتطاع الحاصل في (يسري)؛ ففي وقت تمكُّن ظُلمة الليل ـ الذي يشبه تمكّن هؤلاء المتجبرين الزائف ـ ينبثق ضوء الفجر ليبدّد تلك الظلمة ـ الذي يشبه زوال الطغاة وملكهم ـ وليؤنس جميع المخلوقات، فيأخذوا في الإقبالِ على الحياة مرة أخرى؛ ومن ثَمّ كان الحذف في كلمة(يسر)له دلالة معنوية بليغة؛ فانصرام الليل ونهاية عتمته بالفجر يناسب استئصال الأمم الثلاث الدّال عليه قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ﴾الفجر: [الآية 13 : 14]. ومنه قول امرئ القيس :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإنْ كنتِ قد أزمعتِ صَرْمِي فأَجْمِلي

فكلمة(فاطم) ترخيم (فاطمة)، ويستعمل في مقام اللين والرقّة، ويقصد به التدليل.

وأما الاكتفاء، فهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لدلالة بلاغية، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ سورة النحل:[الآية 81]، والتقدير: تقيكم الحرّ والبرد. "وقد خصّ الله الحرَّ بالذكر هنا؛ لأنَّه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في

([1])النيسابوري: أبو القاسم ،إيجاز البيان عن معاني القرآن،تحقيق حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي / بيروت ،ط 1 ،1415 هـ ،ج 2،ص 876.

وقت نزولها، على أنه لما ذكر الدفء في قوله تعالى: ﴿والأنْعامَ خَلَقَها لَكم فِيها دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] ذكر ضدّه هنا"([1]). ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾سورة الأنعام: [الآية 13]؛ أي: وله ما سكن وما تحرك في الليل والنهار، والتقدير ما سكن فيهما وتحرك، "وإنَّما اكْتُفِي بالسكون عن ضدّه دون العكس لأن السكون أكثر وجودًا، وعاقبةُ كُلّ متحَرّك السكون...ولأنَّ السكون في الغالب نعمة لكونه راحةً ولا كذلك الحركة. وردَّ بأنَّه لا وجه للاكتفاء بالسكون عن التحرك في مقام البسط والتقرير وإظهار كمال المُلك والتَّصرُّف، وأُجِيبَ بأنَّ هذا المحذوف في قوَّة المذكور لسرعة انفهامه من ذكر ضدّه"([2]).

وأما التضمين، فهو أن يُفيدَ الكلامُ المضمَّنُ معنى كلمتين، وهو من ألطف الإيجاز، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سورة الصافات[الآية: 78] والأصل في الفعل ترك أن يتعدّى بحرف الجرّ اللام فلما ضمّن معن أنعمنا،" أفاد بمادته معنى الإبقاء له، أي إعطاء شيء من الفضائل المدَّخرة التي يشبه إعطاؤها ترك أحد متاعًا نفيسًا لمن يخلّيه هو له ويخلُفه فيه. وأفاد بتعليق حرف (على) به أنَّ هذا التَّرك من قبيل الإنعام والتفضيل...ثم إن مفعول تَرَكنا لمّا كان محذوفًا، وكانَ فعل (أنْعَمْنا) الذي ضُمِّنَه فعل تَرَكْنا مِمّا يَحتاجُ إلى متعَلّق معنى المفعول، كان محذوفًا أيضًا مع عامله فكان التقدير: وتَركنا له ثناءً وأنْعَمنا عليه"([3]).

([1])ابن عاشور :الطاهر ،التحرير والتنوير ،الدار التونسية للنشر – تونس ط 1984 هـ ،ج 14 ،ص 240 .

([2]) الألوسي: شهاب الدين،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط1 ، 1415 هـ ، ج4 ،ص104 .

([3]) ابن عاشور :الطاهر ،التحرير والتنوير ،مصدر سابق ،ج 23 ،ص 133 .

وأما الاحتباك، فهو أن يحذف من الأوَّل ما جاء نظيره في الثاني، ويحذف من الثاني ما جاء نظيره في الأوَّل، ومنه قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ سورة آل عمران – الآية 13 ، ففي هذه الآية حذفٌ من الأوّل لدلالة ما في الثاني عليه، وحذفٌ من الثاني لدلالة ما في الأوّل، وعليه يكون تقدير المحذوف في معنى الآية: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ فئة مؤمنة ﴿تقاتل في سبيل الله ﴾، ﴿ وأخرى كافرة ﴾ تقاتل في سبيل الطاغوت. وفي هذه الآية من بديع الكلم المتقن؛ ذلك أنه لما كان المقام مقام تهديد للمشركين، وإنذار لهم بالزوال طوى السياق ذكر الفئة المؤمنة تنزيهًا لهم وتكريمًا؛ وخصّ الفئة الكافرة بالذكر قَهْرًا لهم وإذلالًا.

وأما الاختزال، فهو كل حذف في الكلام لا يدخل في واحد من أقسام الحذف السابقة، وهو يشمل حذف الاسم، والفعل، والحرف، وحذف جملة، أو عدة جمل، ومثاله قول عمرو بن معدي كرب:

فلوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُم نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّمَاحَ أجرَّتِ

وردّ بنية البيت إلى أصله تقتضي: (ولكنّ الرمَاحَ أجرَّتني)، إلا أنّ في حذف المفعول وطيّه احتراز عن الفهم الخاطئ، فقد يتوهم المخاطَب أنّ الرياح أجرّت لسانه هو دون الآخرين، وأنّها قد صنعت شيئًا لو أبصره غيره لنطق بمدحه، فطيّ المفعول أزال هذا التوهم؛ ذلك أنّ الغرض إثبات أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق، ولو قال: أجرتني لجاز أن يتوهم، فلما كان في تعدية أجرّت ما يوهم ذلك، وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول؛ لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح، ويصحح أنه كان منها، وتسلم بكليتها لذلك([1]).

([1])انظر الجرجاني:عبد القاهر ،دلائل الإعجاز ،مصدر سابق ،ص157.

وكذلك سياقات الإطناب تأتي على نمطين([1])؛ أولهما يكون بتكثير الجمل، ويسمى إطناب بالبسط، من مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة: الآية: 164 ، ولما كانت هذه الآية تعقيبًا على إعلان الربوبية والإلهية لله وحده ،"وهي قضيَّة من شأنها أن تتلقّى بالإنكار من كثير من النّاس، فناسب إقامة الحُجَّة لمن لا يقتنع، فجاء بهذه الدَّلائل الواضحة التي لا يسع النّاظر إلّا التَّسليم إليها"([2]).

وأما ثانيهما فيكون بزيادة في الألفاظ على أصل المعنى الذي يراد بيانه لتحقيق فائدة ما، ويسمى إطناب بالزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ﴾سورة الأنعام الآية :38، فقوله: ﴿بِجَنَاحَيهِ﴾ من الإطناب بالزيادة؛ لتأكيد أن المراد بالطائر حقيقته، فقد يطلق مجازًا على شدّة العدو والإسراع في المشي([3]).

ومن طرائق الإطناب([4])؛ الإيضاح بعد الإبهام، وذلك بأن يقدم المتكلم المعنى الواحد في صورتين إحداهما مبهمة؛ ذلك أن المعنى إذا ألقي مجملا مبهمًا تشوقت النفس إلى معرفته مفصلا موضحًا، ومن ثمّ يتمكن المعنى في نفس المخاطَب فضلَ تمكُّنٍ. ومن هذه الطريقة ما يسمى (التوشيع)، وهو أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر،

([1])راجع السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،مصدر سابق، ص548، وما بعدها.

([2])ابن عاشور :الطاهر ،التحرير والتنوير ،مصدر سابق ،ج 2 ،ص 76.

([3])انظر السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،مصدر سابق، ص558.

([4])راجع القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق ،ص196 وما بعدها.

كما جاء في الخبر: (يشيب ابن آدم، ويشيب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل)، وقول عبد الله بن المعتز:

سقتْني في ليلٍ شبيهٍ بشعرها شـبيهةَ خـدَّيها بغـير رقيبِ

فما زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ شَعْرٍ وظُلْمَةٍ وشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيب

ومن طرائقه ذكر الخاص بعد العام؛ للتنبيه على فضله، حتى كأنه ليس من نوعه، تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، من ذلك قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ سورة البقرة : الآية 238 ، والصَّلاة الوسطى لا شَكَّ أنَّها صلاة من جملة الصَّلوات المفروضة؛ لأن الأمر بالمحافظة عليها يدل على أنها من الفرائض، وقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية معرفة بلام التَّعريف، وموصوفة بأنّها وسطى مخصِّصًا لها بالذِّكر لأفضليتها([1]) .

ومن طرائقه ـ أيضًا ـ التكرير، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾سورة الرحمن:الآية 13، لما كانت نعم الله على العباد في كلِّ لحظة من لحظات حياتهم لا تعدُّ ولا تحصى، فقد ألفوها دوامًا؛ ولهذا كرَّر ليقرّوا عند سمَاعِ كُلِّ نعمةٍ منها شكرًا مستحَقًّا، وليجددّوا لها إيمانًا وانتباهًا من غفلة قد تجرّهم إلى نسيان الشكر لإلفِ النّعم.

ومن طرائقه ـ كذلك ـ الإيغال، والاعتراض، والاحتراس أو التكميل، والتذييل، والتتميم، والطرد أو العكس، والاستقصاء، والتعليل، والتفسير، ووضع الاسم الظاهر موضع المضمر، والتأكيد، وزيادة بعض التوابع في الكلام([2]).

([1])ابن عاشور :الطاهر ،التحرير والتنوير ،مصدر سابق ،ج 2 ،ص 467.

([2])راجع القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق ،ص199 : 212 . وكذلك السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،مصدر سابق، ص566 : 570 .

خامسًا :سياقات الوصل والفصل:

ربط البلاغيون بين سياقات الوصل والفصل([1]) والتواؤم النصي وانسجامه، ووضعوا لها قواعد تضبط إيصال المعنى المقصود إلى المخاطب، "فإذا أدى الوصل بين مفردين أو جملتين إلى معنى غير المقصود، أو إلى المعنى المقصود بصورة رديئة أو بصورة لا يقبلها العقل وجب الفصل، وإذا كان الفصل سببا في الإيهام بغير المقصود، أو في فقدان المنطقية الفنية أو العقلية، أو فقدان الرشاقة في الأسلوب وجب الوصل"([2]).وسياقات التركيب من حيث الوصل والفصل على ضربين:

الضرب الأول: وجوب الفصل، ويكون في سياق تركيب يحتمل أن يسيطر عليه كمال الاتصال، كأن تكون الجملة الثانية فيه حالها مع التي قبلها حال التأكيد مع المؤكّد، أو حال بيان وتوضيح، أو حال بدل مع مبدل منه، وهذا السياق لا يحسن فيه الوصل، وإنما يجب فيه الفصل؛ فعلى السياق التوكيدي جاء قوله تعالى: {آلم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة: 1، 2]، فـ"قوله: {لا رَيْبَ فِيهِ}، توكيد لقوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ}، وزيادةُ تَثْبيتٍ له، وبمنزلِة أنْ تقولَ: هو ذلك الكتابُ، هو ذلك الكتابُ، فتعيدُه مرة ثانية لتثبته، وليس يثبت الخبر غير الخبرِ، ولا شَيءَ يتميّزُ به عنه فيحتاجُ إلى ضامٍّ يَضُمُّه إليه، وعاطفٍ يعطفه عليه...وكذلكَ قوله عزَّ وجَلَّ: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ} [البقرة: 8، 9]، إنما قال: (يخادعون)، ولم يقل: (ويخادعون)؛ لأن هذه المخادعة ليست شيئًا غيرَ قولِهم: (آمنّا)، من

([1])الوصل في الجمل عطف بعضها على بعض، والفصل ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى.الجرجاني:عبدالقاهر ،دلائل الإعجاز ،مصدر سابق ص222.

([2])سلطان :منير،الفصل والوصل في القرآن الكريم،منشأة المعارف بالإسكندرية،ط2 ،ص168 .

غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذن كلامٌ أُكِّد به كلامٌ آخرُ هو في معناه، وليس شيئًا سواه"([1]).

وعلى سياق البيان والتوضيح جاء قوله تعالى: { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيم}[يوسف :الآية فقوله: {إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيم} مبيّنٌ لقوله: {مَا هَذَا بَشَرًا}؛ لأنه يمتنع أن يخرج من جنس البشر، ولا يدخل في جنس آخر، ومن ثمّ يكون إثبات المَلَكية له تبيينًا لجنسه، كأن تقول: مررتُ بزيدٍ الظريفِ؛ فإن قولك: الظريف، تَبيينٌ يغني المخاطَبَ عن الحاجةِ إلى أن يسأل: أيَّ الزيدين أردت؟([2]).

وعلى سياق البدل جاء قوله تعالى: { أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَام وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الشعراء ١٣٢-134]، فقوله: {أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَام وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}بدل بعض من الكل، وهو قوله: {أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ}، لدلالته عليها بالتفصيل، والإمداد بما ذكر من الأنعام وغيرها بعض الإمداد بما يعلمون، والمقام مسوق للتنبيه على نعم الله تعالى عند المخاطبين. ومنه قوله تعالى: { اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [يس:20، 21]، فإن المراد هو حمل المخاطبين على إتباع الرسل، وقوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، بدل اشتمال من قوله: { اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ}([3]).

أو سياق تركيب يحتمل أن يسيطر عليه كمال الانقطاع، كأن يكون بين الجملتين تنافر تركيبي، أو تنافر دلالي، أو كون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال نشأ من الجملة الأولى، أو أن تسبق جملة بجملتين يصحّ عطفها على

([1]) الجرجاني:عبدالقاهر ،دلائل الإعجاز ،مصدر سابق ص227 ،228.

([2])انظر الجرجاني:عبدالقاهر ،دلائل الإعجاز ،مصدر سابق ص 230.وكذلك انظر القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق ،ص157.

([3]) انظر القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،مصدر سابق ،ص156.

إحديهما؛ لوجود المناسبة، وفي عطفها على الأخرى فساد، فيترك العطف دفعًا للوهم. فعلى سياق التنافر التركيبي جاء قول الأخطل:

وَقَالَ رَائِدُهم أرْسُوا نُزَاوِلُهَا وكل حَتْفِ امرِئٍ يجْرِي بمقدارِ

وَالشَّاهِد فِي قَوْله: (نزاولُها)، فهو تركيب خبري لفظًا ومعنى، والمراد: نحاول تلك الحرب ونعالجها. وقد فصله عن قوله: (أرسوا)، وهو تركيب إنشائي لفظًا ومعنى. والمراد: أقيموا وأرسوا سفنكم، ولا تتزحزحوا؛ ومن ثمّ وجب الفصل لاختلافهما خَبرا وطلبًا لفظًا ومعنى.

وعلى سياق التنافر الدلالي جاء قوله تعالى: { وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } سورة البقرة :(الآية 14 ،15)؛ فقوله: (ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) لم يعطف على قوله: (إِنَّا مَعَكُمْ) لأنه لو عطف عليه لكان من مقول المنافقين، وهو ليس من مقولهم.

وعلى سياق الجواب عن سؤال نشأ في الجملة الأولى جاء قول المتنبي:

وَما عَفَتِ الرِّياحُ لَهُ مَحَلّا عَفاهُ مَن حَدا بِهِمُ وَساقا

" لما نفى أن يكون الذي يرى به من الدروس والعفاء من الرياح، وأن تكون التي فعلت ذلك، وكان في العادة إذا نُفِي الفعل الموجود الحاصل عن واحد فقيل: (لم يفعله فلان)، أن يقال: (فمن فعله؟)قدّر كأنّ قائلاً قال: (قد زعمت أن الرياح لم تعف له محلا، فما عفاه إذن؟)، فقال مجيبًا له: (عفاه من حدا بهم وساقا)"([1]). ومنه كذلك قول الشاعر:

قالَ لي: كيْفَ أَنْتَ ؟ قُلْتُ: عَليلُ سَهَرٌ دائِمٌ وحُزْنٌ طَوِيْلُ

([1]) الجرجاني:عبد القاهر ،دلائل الإعجاز ،مصدر سابق،ص238.

" لما كان في العادة إذا قيل للرجل: (كيف أنت؟) فقال: (عليل)أن يسأل ثانيا فيقال: (ما بك؟ وما علتك ؟) قدر كأنه قد قيل له ذلك فأتى بقوله: (سهر دائم)جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال"([1]).

وعلى سياق ترك الوصل دفعًا للوهم الموجب للفساد في المعنى جاء قول الشاعر:

وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِيْ أَبْغِيْ بِهَا بَدَلاً أُرَاهَا فِيْ الضَلاَلِ تَهِيْمُ

لما كان الفعل(أرى)بمعنى(أظنّ)، جاءت جملة: (أراها)متحدة من حيث المسند مع جملة: (تظنّ). ولما كان المسند إليه في الجملة الأولى(سلمى)، وهي محبوبة، والمسند إليه في الجملة الثانية الضمير المستتر العائد إلى الشاعر المتكلّم، وهو محِبّ، كانت بين الجملتين علاقة تضايف، ومن ثمّ يكون وصل جملة أراها بجملة تظنّ سلمى صحيحًا، لكنّ الشاعر امتنع عنه؛ دفعًا للتوهّم، حتى لا تكون الجملة الثالثة وهي (جملة أراها) أيضًا من مظنونات سلمى، "ويؤدي ذلك إلى إنتاج دلالة غير مقصودة، هي أن ظنّ سلمى، ينصبُّ على أمرين: أنني أبغي بها بدلاً، وأننى أراها في الضلال تهيم. وبهذا يضيع الناتج المقصود، وهو أن سلمى أخطأت في شيء واحد، وهو أنني أبغي بها بدلا"([2]).

<u>الضرب الثاني</u>: وجوب الوصل، ويكون في سياق تركيب يحتمل أن يسيطر عليه كمال الانقطاع، لكنّ صياغته تأتي على الوصل دفعًا للوهم الموجب للفساد في المعنى، وغالبًا ما تكون هذه البنية الصياغية موظفة في حوار بين طرفين، كأن يقول أحدهما للآخر: أتبيع ثوبك؟ فيرد قائلا: لا وعافاك الله. وفي هذا الحوار تكون الجملة الثانية(عافاك الله) جملة خبرية في ظاهرها إنشائية في دلالتها؛ إذ تنتج(الدعاء)، ولمّا كانت(لا) نافية لما سبقها

([1]) المصدر نفسه:الصفحة نفسها.

([2])عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،مرجع سابق،ص320.

في الحوار، فإن الفصل بين الجملتين يدخل الجملة الثانية في سياق النفي، ومن ثم يصير الدعاء للمخاطب دعاءً عليه. وهنا يترك الفصل دفعًا لفساد المعنى.

أو سياق تركيب بين جملتين خبريتين أو إنشائيتين بينهما علاقة جامعة، فعلى سياق اتفاق الجملتين الخبريتين يأتي قوله تعالى: { إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ }سورة النساء: الآية(142)، " فبين الجملتين اتحاد في المسند(يخادعون ـ خادع)، فالمخادعة موجودة في الجملتين مع اتفاقهما في الخبرية، بل إن العلاقة الجامعة هنا تتحول من المماثلة في بنية السطح وهي(المخادعة) إلى نوع من الضدية في بنية العمق، لأن المخادعة تستلزم(العداوة)بين الطرفين، فالعلاقة تجمع بين التركيبين في المستوى السطحي والمستوى العميق مما استدعى بنية(الوصل).

وعلى سياق اتفاق الجملتين الإنشائيتين يأتي قوله تعالى: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} سورة الأعراف:الآية(31)، فبين الجملتين اتحاد في المسند إليه وهو(الواو)ضمير المخاطبين في الأفعال الثلاثة(كلوا، واشربوا، ولا تسرفوا)، مع وجود اتحاد في التناسب الدلالي أيضًا، وهو المسند؛ وهكذا توالت الأفعال الثلاثة معتمدة الوصل.

وفِي الأخِيرِ نُجمِلُ القَولَ حولَ سياقَي الحَالِ والمَقَالِ بَين التَّنظيرِ والتَّطبِيقِ فِي منجَزاتِ الدَّرسِ البلاغيِّ العربِيِّ القَديمِ، ودَورَهما الفعَّال في قراءةِ النصِّ، بِوَصْفهما آليَّتينِ مِن آليَّات فَهمِه وتفسِيرِه؛ إذ يتضح لنا ما يلي:

ـ تتجلى قيمة النص البلاغية فيما يتضمَّنه مِن علاقاتٍ سياقيَّةٍ بين تراكيبِه اللغويةِ ذات الدلالات المجازية التي تُفضِي بمرادِ المتكلم إِلى ذهنِ المخاطَب.

ـ فَطِن البَلاغِيُّون إلى ربط صياغة النص بالحركة الذهنية والنفسية عند المتكلم، وانصبَّ جَهدُهم فِي دراسَتِهم للنصّ على فكرةِ مقتضَى الحَالِ والعَلاقةِ بينَ الحَالِ والمَقَالِ، ومن ثمّ ضبط هذا المقتضى بمواصفاتٍ من شأنها أن تجعلَ الصياغةَ صالحةً للدخول في نطاق البلاغيّة .

ـ تنطوي بلاغة عملية التواصل الفنّي في بعدها الشمولي على إدراك التفاعل الذي يؤثر في سيرورة التواصل المتبادل بين أركانها الأربعة؛ حيث المتكلم الذي يعدّ ركنًا مهمّا في تلك العملية، فهو الباعث على إنتاج النصّ الموجَّه إلى المخاطَب، إضافة إلى الواقع غير اللغوي، وهو العالم الخارجي المعايَش الذي يستمد منه المتكلم المادة الخام لإبداعه، والمخاطَب الذي يتوجه إليه المتكلم بنصّه، فيتفاعل مع النص انقباضًا وانبساطًا، ثم النصّ الأدبي بوصفه سِياقًا تجسّدت فيه أفكار المتكلم.

ـ سَبْق الفضل لدى العرب القدامى(لا سيما البلاغيين)في الاهتمام بالأسس الثلاثة التي نصّ عليها قول فيرث، وهي: التكوين الثقافي للمتكلم والمخاطَب، والملابسات المحيطة بالسلوك اللغوي وقت الكلام، وأثر الكلام في المشتركين في الحدث الكلامي؛ فقد اهتموا بسياق الحال بوصفه قاعدة بلاغية تنصرف إلى حال المخاطَب واحتياجاته التعبيرية، ومن ثمّ لم يتركوا معنى يتصل بالحال إلا نبّهوا إليه، وأفاضوا الحديث فيه تنظيرًا وتطبيقًا.

ـ تمثُّل المعنى أو مقتضى الحال في التعبير الفني لا يتحقَّق إلا بالنظرة المتأنِّية الواعية التي تحيط بالأحوال التي هي بواعث ومناسبات له من جهة، ثم بالخصائص والظواهر الفنية في ذلك التعبير والتي هي رموز فنية تلبَّس فيها وتشكَّل بها من جهة أخرى.

ـ فطن البلاغيون العرب القدامى إلى أهمية سياق المقال والكيفية التي يكون عليها في العملية الإبداعية، فقد شكّل محورًا أساسيًّا في تنظيراتهم

وتحليلاتهم النصيّة، وقعّدوا له بقولهم: يكفي ألاَّ يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يُؤتَى الناطق من سوء فهم السامع، مع موافقة الحال، وما يجب لكلِّ مقام من المقال.

ـ مدار اهتمام البلاغيين العرب القدامى ـ تنظيرًا وتطبيقًا ـ هو الألفاظ المنظومة التي يتوخى بها معاني النحو في سياق لغوي خاص يضمها، وليست الألفاظ المفردة المجردة عن سياقها. وارتفاع شأن السياق في الحسن والقبول بمطابقته للمقام المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له. وافتقاد تلك المطابقة يحيل الصياغة إلى نوع من العبث الذي لا يدخل حيّز البلاغية مطلقًا.

ـ بنى البلاغيون تصوّرهم حول أحوال المخاطَبين التي تفرض على الصياغة تشكيلًا بعينه، وقاموا بحصرها في ثلاثة مستويات إدراكية؛ ابتدائي، وطلبي، وإنكاري، ولكلّ حال من أحوال تلك المستويات بالضرورة بناءً لغويًّا معينًا.

ـ لاحظ البلاغيون أنّ بلاغية سياق المقال لا تكمن في مجرد خرق الرتب فحسب، وإنما في تحولات الدلالة داخل نسيج النص، واحتماله وجهًا آخر من المعنى، ولهذا اتكؤا في تطبيقاتهم على سياقات تعتمد في إنتاج دلالتها على المستوى العميق؛ مثل سياقات الحذف والذكر، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل بحسب مقتضى الحال.

المصادر والمراجع :

أولاً : القرآن الكريم .

ثانيًا: المطبوعات

1. ابن الأثير:ضياء الدين،المثل السائر،تعليق أحمد الحوفي،وبدوي طبانة،دار نهضة مصر،ط2.
2. ابن عاشور :الطاهر ،التحرير والتنوير ،الدار التونسية للنشر – تونس ط 1984 هـ .
3. أبو موسى،محمد،خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل المعاني،مكتبة وهبة / القاهرة،ط 4 1996م .
4. الألوسي: شهاب الدين،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،تحقيق علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط1 ، 1415 هـ .
5. الباقلّاني: أبوبكر ، إعجاز القرآن الكريم،تحقيق أحمد صقر، ط 3 ،دار المعارف/ مصر، 1971 .
6. بالمر:فرانك،علم الدلالة ، ترجمة : مجيد الماشطة ، دار المأمون للتراث ، بغداد ، 1985 .
7. بشر:كمال، دراسات في علم اللغة(القسم الثاني)،دار غريب،القاهرة،1998م.
8. بو مزبر:الطاهر بن حسين،التّوَاصُل اللساني والشعريّة مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1 ، 2007 م.
9. التفتازاني:سعدالدين،مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني،ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية،بيروت.

10. الجاحظ :أبو عثمان،البيان والتبيين، ،تحقيق عبدالسلام هارون ،مكتبة الخانجي،ط7 ، 1998 م .
11. جاكبسون:رومان، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر،ط1، 1988م.
12. الجرجاني:عبد القاهر،أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر،مطبعة المدني القاهرة.
13. الجرجاني:عبد القاهر،دلائل الإعجاز،تحقيق محمود شاكر،مطبعة المدني القاهرة .
14. حبنّكة: عبدالرحمن حسن،البلاغة العربية:(أسسها وعلومها وفنونها)،دار القلم/دمشق،ط1 ،1996م .
15. حساني:أحمد،مباحث في اللسانيات،منشورات كلية الدراسات الإسلامية والعربية،دبي ـ الإمارات،ط ، 2013م.
16. خليل:حلمي الكلمة دراسة لغوية معجمية، ط 2، دار المعرفة الجامعية ،98 19م .
17. خليل:عبد النعيم،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين(دراسة لغوية نحوية دلالية)،دار الوفاء/الإسكندرية،ط 1، 2007م .
18. دي سوسور:فردينان،علم اللغة العام،ترجمة يوئيل يوسف عزيز،مراجعة مالك يوسف المطلبي،دار آفاق عربية ،بغداد، ط1985م.
19. سلطان :منير،الفصل والوصل في القرآن الكريم،منشأة المعارف بالإسكندرية،ط2 ،ص168 .
20. السبكي: بهاء الدين،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت .
21. السيوطي:جلال الدين،الإتقان في علوم القرآن،تعليق مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون،دمشق/ سوريا ،ط1 ، 2008م ،.

22. شبايك:عيد محمد،الشاهد الشعري في مبحثي الفصاحة والبلاغة3/3،دراسات ومقالات نقدية وحوارات أدبية،حقوق النشر محفوظة لموقع الألوكة ، 1433هـ / 2012م.
23. صالح: محمد سالم،أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية،بتاريخ 05-01-2017.
24. عبدالرحمن القعود ،أبيات: ((ولما قضينا من منى كل حاجة...)) بين النقد العربي القديم والحديث ، المصدر:مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 13، السنة 13.
25. عبدالمطلب: محمد،البلاغة والأسلوبية،الشركة المصرية العالمية ـ لونجمان ،ط1، 1994م .
26. عبدالمطلب:محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،دار نوبار للطباعة/القاهرة،ط2/2007م.
27. العذاري: ثائر ،ابن قتيبة وإغفال التجربة الشعورية،الحوار المتمدن- العدد: 2142 - 2007 / 12 / 27 .
28. عرفة:عبد العزيز عبد المعطي،من بلاغة النظم دراسة تحليلة لمسائل علم المعاني،عالم الكتب،ج1،ط2 ،1984م.
29. عماش: أحمد كاظم و حاتم : رياض حمود ،سياق الحال في الاتجاه الوظيفي مايكل هاليداي "أنموذجا"، جامعة بابل / كلية الدراسات القرآنية، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية / جامعة بابل،ع 29 ، تشرين أول /2016م .
30. عمر: أحمد مختار، علم الدلالة ، عالم الكتب ـ القاهرة ، ط3 ، 2004 .
31. فندريس :جوزيف،اللغة،تعريب عبد الحميد الدواخلى،ومحمد القصاص،مكتبة الأنجلو المصرية،ط 1950 م .

32. القزويني:الإيضاح في علوم البلاغة،دار الكتب العلمية،بيروت ،ص11 ،12.
33. المرزباني:الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ،جمعية نشر الكتب العربية،القاهرة .
34. منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة،دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان، ط1986م.
35. نحلة:محمود ،علم اللغة النظامي مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ملتقى الفكر ، الإسكندرية،1998م.
36. النيسابوري: أبو القاسم ،إيجاز البيان عن معاني القرآن،تحقيق حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي / بيروت ،ط 1 ،1415 هـ ،ج 2.
37. يونس :محمد ،المعنى وظلال المعنى:أنظمة الدلالة في العربية،دار المدار الإسلامي،ط2 2007م .